

طبائع الاستبداد

(ومصارع الاستعباد)

وهي

كلمات حق وصيحة في واد . ان ذهبت اليوم مع الريح

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهى

كلمات حق وصيحة فى واد ان ذهبت اليوم مع الريح
لقد تذهب غداً بالاوتاد

محررها

هو الرحالة . ك

طبع على نفقة
محمد عطيه الكتبي
تباع بجميع المكاتب بمصر واسكندريه

مطبعة الامه بدرب شغلان تبع قسم الدرب الاحمر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى سائر اخوانه المرسلين وعلى اتباعهم هداة الامم الى الحق المبين وبعد فاقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال . انني في سنة ثماني عشر وثلثمائة والف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على اكناف ملكه فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة انما اردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثم كلفني بعض الاعزاء لجمع شمل تلك الابحاث تعميماً للفائدة فاضفت اليها بعض زيادات وحولتها الى هيئة هذا الكتاب وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الامة بيمن نواصيهم ولا غرو فلا شباب الا بالشباب والله ولي المهتدين

مقدمه

لاخفاء ان السياسة علم واسع جداً ينقسم الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما انه قلما يوجد انسان لايتحكك فيه

وقد وجد في كل الامم المتمدنة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات التاريخ او الاخلاق او الادب او الحقوق. ولاتعرف للاقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين وانما لبعضهم مؤلفات سياسة اخلاقية ككليلة ودمنه ورسائل غوريغوريوس اليوناني ومحررات سياسة دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج

واما في القرون المتوسطة فلا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الاسلام فهم الفوا فيه ممزوجا بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس وممزوجاً بالادب كالمعرى والمتنبي وهي طريقة العرب وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطه وهي طريقة المغاربه

أما المتأخرون من أهل أوربا فقد توسعوا في هذا العلم والفوا

فيه كثيراً واشبعوه تفصيلا حتى انهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة

وقدميزوا امباحثه الى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة داخلية وسياسة ادارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية الخ . وقسموا كلا منها الى أبواب شتى وأصول وفروع

وأما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون الفوا في اكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل احمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا

وامالعرب فقليلون ومقلون والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك وخيرالدين باشا التونسي واحمدفارس وسليم البستاني والمبعوث المدني

ولكن يظهر لنا الآن ان المحررين السياسيين من العرب قدكثروا بدليل مايظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة . ولهذا لاح لهذا العاجز ان اذكر حضراتهم على لسان الجرائد العربية بموضوع هو أهم المباحث السياسية وقل من طرق بابه منهم الى الآن فأدعوهم الى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها أفكار اخوانهم الشرقيين وينبهونهم لاسيما العرب منهم لما هم عنه غافلون . فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ماهو حقيقة داء الشرق ودوائه

ونظرا الى ان مبني علم السياسة علي تعريفه بانه هو (ادارة الشؤون المشتركة بمقتضي الحكمة) يكون بالطبع اول مباحث السياسة وأهمها بحث (الاستبداد) أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضي الهوى

واني أرى ان المتكلم في هذا البحث عليه ان يلاحظ تعريف وتفصيل « ماهو الاستبداد . ما سببه . ما أعراضه . ما تشخيصه . ماسيره . ماانذاره . مادواؤه » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلا كثيرًا وبعضه يتحمل سفرًا كبيرًا

وهذه المباحث من حيث مجموعها تنطوي على مسائل كثيره أسرد منها بعض الامهات وهي . ماطبيعة الاستبداد — لما ذا يكون المستبد شديد الخوف — لما ذا يستولي الجبن على رعية المستبد — ماتأثير الاستبداد على الدين — على العلم — على المجد — على المال — على الاخلاق — على الترقى — على التربية — من هم أعوان المستبد — هل يتحمل الاستبداد — كيف يمكن التخلص من الاستبداد — بماذا ينبغي استبدال الاستبداد — ما هي طبائع الاستبداد

ثم اني قبل الخوض في هذه المسائل ألخص النتائج التى تستقر عندها أفكار المتكلمين فيها وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين

فيقول المادي. الداء القوة والدواء المقاومة — ويقول السياسي الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية — ويقول الحكيم الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف — ويقول الحقوقي الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة — ويقول الرباني الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً

هذه أقوال أهل النظر وأما أهل العزائم — فيقول الابي. الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل — ويقول الشهم الداء التعالي على الناس باطلا والدواء تزليل المتكبرين — ويقول المتين. الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال — ويقول المفادي الداء حب الحياة والدواء حب الموت

﴿ ما هو الاستبداد ﴾

الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي أقوى العوامل التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الاضافة

وفي اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم . في مقابلتها كلمات شرع مصون . وحقوق محترمة وحس مشترك . وحياة طيبة

ويستعملون في مقام صفة (مستبدا) كلمات حاكم بأمره وحاكم مطلق وظالم وجبار وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات عادلة ومسؤلة ومقيدة ودستورية

ويستعملون في مقام صفة (مستبد عليهم) كلمات أسرى وأذلاء ومستصغرين ومستنبتين (١) وفي مقابلتها محتسبون واباءة وأحرار واحياء

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين

ومنشأ الاستبداذ اما هو من كون الحكومة غير مكلفة

---

١ الاستنبات او التنبت من اصطلاحات سواس الافرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات

بتطبيق تصرفها على شريعة أو على أمثلة أو على ارادة الامة وهذه حالة الحكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها أبطال قوة القيد بما تهوى وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة

وأشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث أو المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد . ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسؤلين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤلون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان رضى الله عنه وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة

في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤلية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الامة أو اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفه الاستبداد وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين المهولتين جهالة الامة والجنود المنظمة

ولا يعهد في تاريخ حكومة من الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤله مدة أكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف . وماشذّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترا والسبب يقظه الانكليز الذين لا يسكرهم انتصار ولا يخملهم انكسار . وهذه حضرة الملكة ڤيكتوريا لو تسني لها الاستبداد الآن لغنمته ولو لاجل عشرة أيام من بقية عمرها ولكن هيهات ان تظفر بغرة من قومها تستلم فيها زمام الجيش

أما الحكومات البدوية التي تتألف رعيتها كلها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم وسامتهم ضيماً ولم يقووا على الاستنصاف فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد

وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان الى الآن

الافترات قليلة

وقد تكلم الحكماء لا سيما المتأخرون في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصور في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ما ذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم

المستبد يتحكم في شؤن الناس بارادته لا بارادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته

المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشر والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً والعلماء هم اخوتهم الراشدون ان أيقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا

المستبد يتجاوز الحد لانه لا يرى حاجزاً فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب

المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر فعلى الرعية ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر . مستعدة لان تقول لا أريد الشر . مستعدة لان تتبع القول بالعمل والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة في الهواء على أن مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستبداد

المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب فالمستبد

يود أن تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة وكالكلاب تذللاً وتملقاً وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست بل عليها أن تعرف مقامها هل خلقت خادمه للمستبد أم هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل

الاستبداد والدين

وردفي المقدمة والتعريف بعض ايضاح للمراد من الاستبداد على ان معرفة طبائع الاستبداد اجمالا لا تتم الا باستيفاء الكلام على المباحث التي أشرت اليها ومنها بحث تاثير الاستبداد على الدين . واني تخيرت ان أتكلم في هذه المواضيع اجمالا واقتضابا على اسلوب شبيه بالخطابة فاقول

قد تضافرت آراء اكثر المحررين السياسيين من الافرنج على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك انهما اخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الانسان . والمشاكلة بينهما ظاهرة من ان أحدهما حاكم في عالم القلوب والآخر متحكم في مملكة الاجسام

والفريقان مصيبان في حكمهم بالنظر الى أساطير الاولين والقسم

التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الأنجيل. ومخطئون مطلقا في حق الاقسام التعليمية منها كماهم مخطئون في نظرهم ان القرآن جاء باستبداد مؤيد للاستبداد السياسي أو مؤيد به ولعلهم يعذرون اذا قالوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طي اشاراته وبلاغته. وانما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين

يقول هؤلاء المحررين ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تتهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة وعذاب مديداً وخالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوي وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والاوهام. ثم تفتح هذه التعاليم أبوابا للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الاحبار والقسس والمشايخ. ودخوليتها التعظيم الراتب بالقلب والقالب أى تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لاولئك الحجاب الذين بعضهم يحجزون حتى الارواح من لقاء ربها مالم يأخذوا عنها رسوم المرور الي القبور وفديه الخلاص من الاعراف

ويقولون ان المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضاً لانهم يسترهبون الناس بالتعالى الشخصي

والتشامخ الحسي ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لاجلهم كأنهم خلقوا من جملة الانعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط

ويرون ان هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كأنهما يدان متعاونتان وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة كأنهما القلم والقرطاس اذا استعملا في تسجيل الشقاء على الناس

ويقررون ان هذا التشاكل بين القوتين ينجز بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى التباس الاله المعبود والجبار عليهم واختلاطهما في مضايق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق التعظيم والرفعة عن السؤال والمؤاخذة على الافعال . بناء عليه لا يرون لانفسهم حقا في مراقبة المستبد

وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات وهم هم ليس من شأنهم ان يفرقوا مثلا بين الفعال المطلق والحاكم بامره وبين (لا يسأل عما يفعل) و (غير مسئول) وبين (المنعم) و (ولي النعم) وبين (جل شأنه) و (جليل الشأن) بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله

وهذه الحال هي التي سهلت في الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض

المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية حتى يقال انه مامن مستبد سياسي الا ويتخذله صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله. ولا أقل من ان يتخذ بطانة من أهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله

ويعللون ان قيام المستبدين من امثال « ابناء داود » و« قسطنطين » في تاييد نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل « فيليب الثاني » الاسباني و« هانري الثامن » الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس انكليزسيون وكالحاكم الفاطمي والسلاطين الاعاجم المنتصرين لغلاة الصوفيه والبانين التكايا لم يكن ذلك كله الا بقصد الاستعانة بالدين أو باهل الدين على ظلم المساكين

ويحكمون بان بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة لا تنفك متى وجد احدهما في أمة جر الآخر اليه أو متى زال زال رفيقه وان ضعف أي صلح أحدهما صلح الثاني . وشواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان وكلها تبرهن على ان الدين اقوي تاثيرا من السياسة ويمثلون بالسكسون فان البروتستانية أثرت في الاصلاح السياسي أكثر من تأثير الحرية السياسية في الاصلاح عند الكاثوليك

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين أسهل منالا واقوي وأقرب

طريقا لاصلاح السياسي

ويرون ان اول من سهل هذا المسلك حكماء اليونان حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقدة الاشتراك في الالوهية أخذوها عن الاشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة باله والحرب باله والبحار باله والامطار باله الي غير ذلك من التوزيع وجعلوا الاله الالهة حق النظارة عليهم وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم

وبعد تمكن هذه العقيدة في الاذهان بما البست من سحر البيان سهل على اوليك الحكماء دفعهم الناس الي مطالبة جبابرتهم النزول من مقام الانفراد وبان تكون ادارة الارض كادارة السماء فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين . وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان أخيرا من اقامة جمهوريات اثينا واسبارطه . وكذلك فعل الرومان . وهذا الاصل لم يزل المثال القديم لاصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها الى هذا العهد

انما هذه الوسيله أى التشريك فضلا عن كونها باطلة في ذاتها نتج عنها أخيرا رد فعل أضر كثيراً . وذلك انها فتحت للمشعوذين من سائر الطبقات باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الالوهية كالصفات القدسيه والتصرفات الروحية . وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير أفراد

من الجبابرة وللملاءمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشاعرمرما لخدم المستبدين

وقد جاءت التوراه بالنشاط والنظام رافعه عقيدة التشريك في اسباط بني اسرائيل مستبدلة مثلا أسماء الالهة باالملائكة ولكن لم يرض بعض ملوك بني اسرائيل بالتوحيد فافسدوه ثم جاء الانجيل بالدعة والحلم مؤيداً ايضاً لناموس التوحيد ولكن لم يقو دعاته الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة الذين بادروا القبول النصرانية قبل الامم المترقية ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليما كمسألة القدر في الاسلامية بل تلقوها منهم بمعني الحقيق لانهم كانوا قدالفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم انهم أبناء الله فكبر عليهم ان يعتقدوا في عيسي عليه السلام صفة هي دون مقام أوليك الملوك

ثم ان النصرانية ما لبثت ان تلبست ثوباغير ثوبها كما هو شأن سائر الاديان التي سلفتها فتوسعت برسائل بواس ونحوها وصارت تعظم رجال الكهنوت الي درجة اعتقاد النيابة والعصمة وقوة التشريع مما رفض أكثره أخيراً البروتستان أي الراجعون في الاحكام لاصل الانجيل .

ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكليه ومحكما لقواعد الحرية السياسة المتوسطة بين الديموقراطية والاريستوقراطية فاسس التوحيد . وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين

التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتي ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر بن عبدالعزيز والمهتدى العباسي ونور الدين الشهيد

فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معني القرآن وعملوا به واتخذوه اماماً فأنشأوا حكومة قضت بالتساوى حتي بينهم انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لاتكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة أم واحده

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوى حتي في القصص منه . ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبا من عرب تبع تخاطب اشراف قومها « ياايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتي تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والامر اليك فانظرى ماذا تامرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون»

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ أى أشراف الرعيه وان لايقطعوا أمراً الا برأيهم وان تحفظ القوة والبأس في يد الرعيه وان يخصص الملوك بالتنفيذ ويكرموا بنسبة الامر اليهم وتعلن شأن الملوك المستبدين واستحقاقهم للمؤاخذة والتقبيح

ومن هذا الباب أيضا ماورد في قصة موسي عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى(وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) أي قال الاشراف بعضهم لبعض ماذا رايكم (قالوا) خطابا لفرعون وهو قرارهم (أرجه وأخاه وارسل في المدائن حاشرين ياتوك بكل ساحر عليم) ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالي (فتنازعوا امرهم) اى رايهم (بينهم واسروا النجوى) اي افضت مذاكرتهم العلنيه الي النزاع فاجروا مذاكرة سريه طبق مايجرى الي الآن في مجالس الشوري العموميه

بناء عليه لا مجال لرمى الاسلاميه بالاستبداد بعد امثال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالي (وشاورهم في الامر) اى في الشان وكذلك قوله تعالي «وأمرهم شوري بينهم» اى شأنهم وقوله تعالى «ياايها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم» أى اصحاب الشان منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه اكثر المفسرين.

ويؤيد هذا المعني قوله تعالي «وما امر فرعون» اى ماشأنه وحديث «اميرى من الملائكه جبريل» اي مشاورى

وقد ظهر من هذا أن الاسلامية مؤسسه علي اصول الادارة الديموقراطية اى العموميه والشورى الاريستوقراطيه اي شورى الاشراف . وقد مضي عهد النبي عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على

هذه الاصول يأتم وا كمل صورها خصوصا وانه لا يوجد في الاسلاميه نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل اقامة الدين. هذا الدين الحر السهل السمح الذى رفع الاصر والاغلال وابادالميزة والاستبداد. الدين الذى ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان. الدين الذي فقد الانصار والابرار والحكماء الاخيار فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيله لتفريق الكلمه وتقسيم الامه شيعا وجعلوه آلة لاهوائهم فضيعوه وضيعوا اهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وادخال ماليس منه فيه كما فعل أصحاب الاديان السائره حتى جعلوه دينا لا يقوي احد ممن يتوهم ان كل مادونوه هو منه على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته التي صارت تشتبه مراتبها على العوام والخواص

وبذلك انفتح على الامه باب التلوم على النفس واعتقاد التقصير المطلق وان لا نجاة ولا مخرج ولا امكان لمحاسبة النفس. وهذه الحال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوط بها قيام الدين وقيام النظام والعدل

وبهذا الاهمال للمراقبه والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا وذاك ظهر حكم حديث (هلك المتنطعون) اي المتشددون في الدين وحديث (لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء

العذاب) والله الملهم للصواب

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال

«اقتبسوا» مقام البابويه وتمثيله. واحترام الاعاظم احترام عبادة وطاعة الكبراء على العمياء. وضاهوا. مقامات البطارقه والكردناليه والشهداء وأسقفيه كل بلد. وحاكوا. مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم. والرهبنات ورؤساها. وحاله الاديرة وبادريتها. والرهبنه اي التظاهر بالتقشف ورسومها والحميه وتوقيتها. وقلدوا. رجال الكهنوت وفي مراتبهم وتميزهم في البستهم وشعورهم. وشاكلوا. مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها والترخمات ووزنها والترنمات وأصولها واقامه الكنائس على القبور. وشد الرحال لزيارتها. والاسراج عليها. والخضوع لديها وتعليق الامال بسكانها. واخذوا. التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصليب. (وانتزعوا الحقيقة من السر. ووحدة الوجود من الحلول. والخلافه من الرسم. والسقيا من تناول القربان. والمولد من الميلاد. وحفلته من الاعياد ورفع الاعلام من حمل الصلبان. وتعليق الواح الاسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل والاستفاضه

والمراقبه من التوجه بالقلوب انحناء امام الاصنام. (ومنعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسنه من حظر الكهنه الكاثوليك التفهم من الانجيل علي غيرهم وسد اليهود باب الاخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود وجاؤا من المجوسيه باستطلاع الغيب من الفلك وبخشية أوضاع الكواكب وباتخاذ أشكالها شعارًا وباحترام النار ومواقدها (واتفقوا) من الاساطير والاسرائيليات أنواعًا من القربات وعلوما سموها لدنيات

ومن تأمل في هذه المقتبسات يجدأ كثرها أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد وهكذا تفسد الاديان ويشقى الانسان ولا حول ولا قوة الا بالله

وكذلك يقال عن مبتدعي النصارى من أن أكثر مااعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مشكلة التثليث لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع وكثيرها متبع . وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصحف والصفائح التى وجدت في نواويس المصريين الاقدمين علي مآخذ أكثرها . وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار أصولا في الاساطير والآثار والالواح الاشورية وترقوا في التطبيق والتدقيق الى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة الى أصول عامة الاديان في الشرق الادنى

مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الاقصي

والخلاصة أن البدع التي شوشت الايمان وشوهت الاديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمي جميعها الى غرض واحد هو المراد ألا وهو الاستبداد

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الاولين والعلماء المنافقين أفعالا مريعة في اطفاء نور العلم ويجد أنهم طالما أرادوا أن يطفئوا نور الله ولكن أبي الله الا أن يتم نوره فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لانه قال فيه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا أيضاً من معجزاته لانه أخبر عن ذلك في قوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)

واني أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حجر علي العلماء الحكماء من أن يفسروا قسمي الآلاء والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً لانهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي أهم مسألة في الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف انها هي فصاحته وبلاغته واخباره عن أن

الروم من بعد غلبهم سيغلبون

مع أنه لو أطلق للعلماء عناء التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لاهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن . ألوف آيات من الاعجاز . لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق قوله (ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) برهان عيان لا مجرد تسليم وايمان

ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزي لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه

ومن ذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الاثير وقد وصف القرآن بدأ التكوين فقال (واستوى الى السماء وهي دخان)

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول (وآية لهم الارض الميتة أحييناها) الى أن يقول (وكل في فلك يسبحون)

وحققوا ان الارض منفتقة من النظام الشمسي والقرآن يقول (ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما)

وحققوا أن القمر منشق من الارض والقرآن يقول (أفلا يرون أنا

تأتي الارض ننقصها من أطرافها) ويقول (اقتربت الساعة وانشق القمر)

وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن تقول (خلق سبع سموات طباقاً ومن الارض مثلهن)

وحققوا انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تميد الارض أي تموج في دورتها والقرآن يقول (القى في الارض رواسي ان تميد بكم)

وكشفوا ان التغيير في التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشيء عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول (كل شيء عنده بمقدار)

وكشفوا ان للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول (جعلنا من الماء كل شيء حي)

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول (خلقنا الانسان من سلالة من طين)

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول (خلق الازواج كلها مما تنبت الارض) ويقول (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) ويقول (واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ويقول (من كل الثمرات جعل فيها زوجين)

وكشفوا طريقة امساك الظل أي التصوير الشمسي والقرآن يقول (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا)

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالريح (وخلقنا لهم من مثله مثله ما يركبون)

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض والقرآن يقول (أرسل عليهم طيراً أبابيل) أي متتابعة مجتمعة ترميهم بحجارة من سجيل أي من طين المستنقعات اليابس الى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية. وبالقياس على ماتقدم ذكره يقتضي ان كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لاعجازه مادام الزمان وما كرّ الجديدان

الاستبداد والعلم

ماأشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على ايتام أغنياء. يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين. فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم. كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف مالم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء. فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ولو كان وحشا لكان

ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولاّداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يحل الجيوش . لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيرا من امثال الكميت وحسان اومو تسكيو وشيللر

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم . فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تاييد امره بنحو سد افواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد

نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤوس

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الانسان ماهو الانسان وماهي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة

والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد اعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء .

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لان للعلم سلطانا اقوى من كل سلطان فلابد للمستبد من ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علما . ولذلك لا يحب المستبد ان يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق . وعلى هذه القاعده بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبني ثنائهم على كل من يكون مسكينا خاملا لا يرجى لخير ولا لشر

ويتنج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا يسعي العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام ومن هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا اقالوا ومتى قالوا فعلوا

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة . ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا اسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع اى انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام واب حليم يتلذذ بالتحابب

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخاء ونماء . حياة عز وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد ان كان في دور الاستبداد أشقى العباد لانه كان على الدوام محاطا بالاعداء ملحوظا بالبغضاء غير أمين على حياته طرفة عين

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشئ عن جهل وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يالفون غيره في أيام

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته . وكثيراً ما تختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان أحدهم اذا أراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلا يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ واذا أراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان

وصلاح الدين يوازن مرتبتي أمنهما في قوميهما

لما كانت أكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان أضر شيء على الانسان هو الجهل وأضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلا مخصصا للخوف يعبد اتقاء لشره

قال أحد المحررين السياسيين اني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه . فالملك الجبار هو المعبود وأعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين

ويقول أهل النظر في أحوال البشر ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شنآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريفات

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسيه مثلا أم فقيرة في هذا الباب كالعربية

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد

يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء

قال المدققون ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقه ان الحرية افضل من الحياة وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وماهي وظائفها والرحمة وماهي لذاتها

اما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافئدتهم هواء يرتجف من صولة العلم وكأن اجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا اله الا الله) ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام . بني الاسلام بل وكافة الاديان علي لا اله الا الله ومعني ذلك انه لا يعبد حقا سواه اي سوى الصانع الاعظم ومعني العبادة التذلل والخضوع فيكون معني لا اله الا الله (لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله) فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلا ثم كلا

حتي ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان

الاقوياء او الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء ورؤساء كل الجميات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ولكن قتل الانسان ما أكفره بنعم مولاه وما أظلمه لنفسه وجنسه

الاستبداد والمجد

من الحكم البالغة للمتاخرين قولهم « الاستبداد اصل لكل فساد » ومبني ذلك ان البحث المدقق في احوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد اثرا سيئا في كل واد

وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده . ويحارب العلم فيفسده . واني الآن ابحث في انه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لا يترفع عنه نبي اوزاهد ولا ينحط عنه دني او خامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الارض مع قمرها عند الامراء وتزيد على لذة مفاجئه الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة

وقد طالما اشكل على الباحثين اى الحرصين اقوى ؟ حرص

الحياة ام حرص المجد؟ والحقيقة التى عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط بن خلدون هي ان المجد مفضل على الحياة عند الاحرار . وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاشراء . وعلى هذه القاعدة يكون ائمة آل البيت عليهم السلام معذورين في القائهم بانفسهم في المهالك لانهم لما كانوا أحراراً أبراراً يميزون طبعاً الموت كراماً على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذي خطأ أمجاد البشر في اقدامهم على الخطر ناسياً تقريره ان سباع الطير والوحوش تأبي التناسل في أقفاص الاسر بل وجدت فيها طبيعية اختيار الانتحار تخلصاً من قيود الذل

المجد لاينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل الانسانية أو سبيل الوطنية . والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ما طلب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم

وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمي مجد الكرم وهو أضعف المجد او بذل العلم النافع المفيد للجمعية ويسمي مجد الفضيلة أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمي مجد النبالة . وهذا أعلى المجد وهو المراد على الاطلاق . وهو المجد الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه

أعناق النبلاء. وكم له من عشاق لذت لهم في حبه الشهادة وأكثرهم يكون من مواليد بيوت الشرف التالد الذي يتصل اوله بعهد الحرية والعدل او يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين انقطاعاً طويلا ومن أمثلة المجد قولهم خلق الله للمجد رجالا يستعذبون الموت في سبيله

وهذا (نيرون) سأل «آغرين» الشاعر وهو تحت النطع من أشقى الناس؟ فاجابه معرضا به من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له في الخيال. وكان (ترابان) العادل اذا قلد سيفا القائد يقول له هذا سيف الامه ارجو ان لا تعدي القانون فلا يكون له نصيب في عنقي. وخرج قيس من مجلس الوليد مغضبا يقول أتريد ان تكون جباراً والله ان نعال الصعاليك لاطول من سيفك. وقيل لاحد الاباة ما فائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال ما احلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين. وقال آخر عليّ ان أفي بوظيفتي وما على ضمان القضاء. وقيل لاحد النبلاء لماذا لا تبني لك داراً فقال ما اصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد او في السجن او في القبر وهذه ذات النطاقين «أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها» وهي امراة عجوز تودع ابنها الوحيد بقولها ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت

والحاصل ان المجد هو المجد محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب

استعداده وهمته وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان

ويقابل المجد من حيث مبناه التمجد وماهو التمجد؟ وماذا يكون التمجد؟ التمجد لفظ هائل المعني ولهذا اراني اتعثر بالكلام واتلعثم في الخطاب لا سيما من حيث أخشي مساس احساس بعض المطالعين ان لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة اجدادهم الاولين . فاناشدهم الوجدان والحق المهان ان يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها. ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على الانسانية لا يعدمون تأويلا. واني اعلل النفس بقبولهم تهويني هذا فأنطلق واقول

التمجد خاص بالادارات المستبده وهو القربي من المستبد بالفعل كالاعوان والعمل أو بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون والمخاطبين بنحو رب العزة اورب الصولة أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل وبتعريف آخر التمجد هو ان ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانيه

وبتوصيف اجلي هو ان يتقلد الرجل سيفا من قبل الجبار يبرهن به على انه جلاد في دولة الاستبداد أو يعلق على صدره وساما مشعرا بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان أو يتحلى بسيور رمز ركشة تنبيء بانه صار أقرب الي النساء منه الي الرجال . وبعبارة أوضح واخصر هو ان يصير

الانسان مستبدا صغيرا في كنف المستبد الاعظم

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية وذلك لان الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تابي كل الاباء اخلال التساوي بين الافراد الا لموجب حقيقي فلا ترفع قدر احد منها الا أثناء قيامه في خدمتها أي الخدمة العمومية كما انها لا تميزه بوسام او تشرفه بلقب الا اعلانا لخدمة مهمة وفقه الله اليها وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات

وهذا لقب اللورديه مثلا عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ولكن لا يناله عندهم غالبا الا من يخدم أمته خدمة عظيمة ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلا لان يخدمها خدما مهمة غيرها ومع ذلك لا اعتبار للورد في نظر الامة الا ما دامت تقرأ في جبهته سطرا محررا بقلم الوطنيه وبمداد الشهامة ممضى بدمه يقسم فيه بشرفه انه ضمين ناموس الامة أي قانونها الاساسي حفيظ على روحها أي حريتها

التمجد لا يكاد يوجد له أثر في الامم القديمة الا في دعوي الالوهية وما يشابهها من تفع الناس بالانفاس أو في دعوى الاصلاء نسل الملوك والامراء وانما نشأ التمجد في القرون الوسطي وراج سوقه في القرون الاخيرة الى ان صارت الحربة تفسل ادرانه على حسب قوتها وطاقتها

المتمجدون يريدون ان يخدعوا العامة وما يخدعون الا أنفسهم

بانهم أحرار في شؤونهم لا يزاح لهم نقاب ولا تصفح منهم رقاب فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساآت والاهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها بل على مقاومة من يدعي خلافها بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد وابعادهم من اعتقاد ان من شأنه الظلم

وهكذا يكون المتمجدون اعداء للعدل أنصارا للجور وهذا ما يقصده المستبد من ايجاد المتمجدين والاكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من ان يغرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض الاستبداد فيوهمها انه يريد نصرة الدين أو يسرف بالملايين من أموال الامة في ملذاته وتاييد استبداده باسم حفظ شرف الامة وأبهة ملكها. أو يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها. او يتصرف في حقوق الملك والامة كما يشاؤه هواه باسم ان ذلك من مقتضي الحكمه والسياسه

المستبد قد يستمجد بعض افراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرمحون. يتخذهم كنموذج البائع الغشاش على انه لا ينتخب العمال والاعوان الا من الاراذل والاسافل ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة الاوغاد. والحكمة في ذلك اظهر من ان تحتاج الى بيان طويل

المستبد قد يستمجد ايضا بالمناصب والمراتب بعض العقلاء الامناء

اغترارا منه بانهم خبثاء ينفعونه يدهائهم ثم لما يخيب نظره فيهم بعد التجربة يبادر التنكيل بهم او يهجرهم ولهذا لا ينال الحظوة عنده الا الجاهل العاجز او الخبيث الخائن . وهنا انبه فكر المطالعين الى ان هذه الفئة اى العقلاء الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة ثم يضرب على يدهم لمجرد انهم امناء هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادى افرادها بالاصلاح . هذا الانقلاب قد اعيا المستبدين امره لانهم لا يستغنون عن التجربة ولا يامنون هذه المغبة . ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالبا على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم واجدادهم الاخلاق المرضية للمستبدين ومن هنا ابتدأت في الامم نغمة التمجد بالاصاله والانساب

حيث كان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد رايت ان اتكلم عليها قليلاً ثم اعود لبحث المستبد واعوانه المتمجدين فاقول

الاصالة صفة لا تنكر مزاياها من حيث الاميال التي يرثها الابناء من الآباء : ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت : ومن حيث انها تكون مقرونة بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الرحمة والشهامة : ومن حيث انها مدعاة غالباً للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز : ومن حيث تقويتها العلاقة بالامة والوطن . ومن حيث ان اهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون نوعاً المعائب والنقائص .

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة انواع. بيوت علم وفضيلة. وبيوت مال وكرم. وبيوت ظلم وامارة. وهذا الاخير هو القسم الاكثر عددا والاهم موقعا وهو مطمح نظر المستبد في الاستعانه وموضع ثقته. فلننظر ماذا هو نصيب هذا القسم من تلك المزايا

هل يرث الابن من جده او سس لمجده أمياله في العدالة ولم توجد. ام يتربي على غير الوقار الباطل السائد فيما بين العائلة في بيتهم. ام يستخدم الثروة في غير الملاذ البهيمية والابهة الكاسرة لقلوب الفقراء. أم يتمثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين. ام لا يستحقر امته لجهلها قدره ومقامه أم يري لجنابه وطناغير مقاعد التحكم. أم يستحي من الناس ومن هم الناس عنده غير اشباح فيها أرواح

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء على انه لا نبخس حق من نال منهم حظا من العلم واوتي الحكمة فان هؤلاء وقليل ماهم ينجبون نجابة عظيمة عجيبة فكانهم يرثون قوة القلب فيستعملونها في الخير لا في الشر ويستفيدون من انفة الكبراء الجسارة على العظماء وهكذا تتحول قوة كل المميزات الى فضل فائض وحسب شامخ ومنها الحنين على الوطن واهله والانين لمصابه والاقدام على العظائم. وأمثال هؤلاء النوابغ النجباء اذا كثروا في أمة يوشك ان يترقي منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودون أممهم الى النجاح والفلاح ولا غرو فان اجتماع شموس النسب وقوة الحسب

يفعلان ولا عجب فعل المستبد العادل اي عنقاء مغرب

ثم ان الاصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل لان بني آدم داموا اخوانا متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض افرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية. ونشأ من تنازعها تميز أفراد على افراد وحفظ هذه الميزة أوجد الاصلاء فالاصلاء في عشيرة أو أمة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف. ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيرا على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس أو المطلقة اذا لم يبق أمامه مايتقيه

بناء عليه اذا لم يوجد في أمة اصلاء بالكلية او وجدو لكن كان لسواد الناس صوت غالب اقامت تلك الامة فعلا او حكما لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء. ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم اصلاء يتناظرون كل فريق منهم يسعي لاجتذاب طرف من الامة استعدادا للمغالبة واعادة التاريخ الاول

ومن أكبر مضار الاصلاء أنهم ينهمكون أثناء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة يسترهبون اعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون بها عليهم. ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لا يتركها الباقون لا لفهم لذتها ومضاهاة للمستبد. والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدر عليهم المال

ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئا من النفوذ والتسلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ولاجل ان يألفوها مدة فتفسد اخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون أعوانا له بعد ان كانوا اضدادا

ويستعمل المستبد ايضا مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء والالتفات والاغضاء كي لا يبطروا وسياسة القاء الفساد فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه وتارة ينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاء للناس واخري يستغني عن بعضهم بافراد من اداني الرعية كسراً لشوكتهم. والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتي يجعلهم يترامون بين رجليه ثم يتخذهم لجاماً لتذليل الرعية. ويستعمل عين هذه السياسة مع العمال ورؤساء الاديان. وبهذه السياسة اونحوها يخلو الجو لهذا المستبد يعصف وينسف الرعية كريش يقلبه الصرصر والسموم على اديم من الجمر ولله الامر. نعم لله جل شأنه الامر حيث قال «واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها العذاب»

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووجه تاجه الموروث على راسه يري نفسه كان انسانا فصار آلهاً. ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الامر أعجز من كل عاجز وانه ما نال ما نال الا بواسطة من حوله من الاعوان فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له ما الارث. وما العرش. وما

التاج. وما الصولجان الا اوهام في اوهام. ما مكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا سحرنا وخيانتنا لديننا ووجداننا ووطننا واخواننا فانظر كيف تعيش معنا

ثم يلتفت الي جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كانهم اموات من حين. ولكن يتجلى في فكره ان بينهم بعض افراد عقلاء امجاد يخاطبونه بالعيون بان لنا معاشر الامة شؤونا وكلناك في قضائها على ما نريدو نبغي لا على ماتريد فتبغي

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلا الاعوان الاعوان اسلمهم القيام واردهم بجيش من الاوغاد احارب بهم هؤلاء الامجاد وبغير هذا الحزم لا يدوم لي استبداد ولا استعباد

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي الى الفراش الي كناس الشوارع ولا يكون كل صنف الا من اسفل اهل طبقته اخلاقا لان الاسافل لا يهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وانصار لدولته وشرهون لاكل السقطات من ذبيحة الامة. وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته. فكلما كان المستبد حريصاعلي العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه..

واحتاج الى الدقة في اتخاذهم من اسفل السافلين الذين لاأثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعا اعلاهم وظيفه وقرباً

ان العقل و التاريخ والعيان كل يشهد بان الوزير الاعظم المستبد هو اللئيم الاعظم في الامة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات. وربما يغتر المطالع كما اغتر بعض المؤرخين البسطاء بان كثيرا من وزراء المستبدين كانوا ايتاأوهون من المستبد ويتشكون من اعماله ويجهرون بملامه ويظهرون لوانه ساعدهم الامكان لعملوا او فعلوا وافتدوا الامة باموالهم بل وحياتهم فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء اكثر الامة لؤما بل كيف ذلك ومنهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد او بعضه او هلكوا دونه

فجواب ذلك ان المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه. فهل يجوز العقل انه ينتخب لعصابته من يشك فيه انه لايوافقه على مراده. كلا. هل ينتخب وزيراله من السوقة لم تسبق له تجربة ولامعرفة ما انطوي عليه. كلا. هل يمكن ان يكون الوزير متخلقا بالخير حقيقة و بالشر ظاهرا فيخضع المستبد باعماله وهو هو الذي أعزه بكلمة ويعزله بكلمة . كلا. المستبد هو من لايجهل ان الناس اعداؤه لظلمه فهل يأمن على بابه

من لا يثق به انه اظلم منه وابعد منه عن أعدائه . كلا

ثم كيف يكون الوزير أمينا من صولة المستبد اذا لم يكن بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان حال كون الوزير محسودا بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعا لظالمهم وهو هدف في كل ساعة للشقايات المحقة والوشايات المحرقة. أم كيف يكون عند الوزير شيء من القوي أو الحياء أو العدل أو الوجدان أو الحكمة أو المرحمة ويقبل ان يكون جلاداً للمستبد

ام كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الامة وهو العالم بانها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء مالم يتفق معها على المستبد وماهو بفاعل ذلك ابداً الا اذا يئس من اقباله عنده. وان فعل فلا يقصد نفع الامه انما يريد تهديد المستبد او فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيوازره على وزره

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الامة كما في الحكومات الدستورية . ومثله المشير هو مشير للمستبد مغير على الامة لا غيور عليها. خصوصا وهو الذي يعلم من نفسه ان المستبد قلده السيف وهو لم يدفع عنه صائلا ولا فتح له فتحا مبينا وانما عاهده على استعمال هذا السيف في رقاب اعداء استبداده وماهم الا الامة المسكينه

بناء عليه لا يغتر احد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقوادمن

الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا.
ولا ينخدع النبهاء لهم وان ناحوا وان بكوا. ولا يثقون بهم وبوجدانهم
مهما صلوا وسبحوا. لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ولا ضامن
على انهم اصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه هم اقرب ان لا يقصدوا
بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية اى اموالها.
نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد القاء سيفه
للامة لتكسره. وهو قد الف عمراطويلا لذة البذخ وعزة الجبروت. وهو
من تلك الامة التي قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية حتى
صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي فلا يكاد يلبس كم ثوبها الا
ويتنمر على أمه وابيه ويتمرد على اهل قريته وذويه ويكظ اسنانه
عطشا للدماء لا يميز بين أخ او عدو

ولنذكر بعض الدلائل القطعية الدامغة التي تثبت ان كل رجال
عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقا. وان كل
ما يتظاهرون به احيانا من التذمر والتأثر يقصدون به تغرير وخداع
الامة المسكينة ويطمعهم في انخداعها لهم علمهم بان الاستبداد القائم في
الحقيقة بهم والذي سيدوم ايضاً بهمتهم قد اعمى ابصار الامة وبصائرها
وخدر اعصابها فهي لا ترى الا هو لا محيطا ولا تشعر الا بالمرعام فتئن من
البلاء ولا تدرى من اين جاءها. فتواسيها فئة باسم الدين يقولون لها هذا

قضاء جاء من السماء فلا مرد له بغير الصبر والرضاء ويغررها آخرون وهم اولئك الاعاظم المتوجعون بانهم اطباء المرض ويهتمون بازالته ومتحمسون لانقاذ الامة من تلك الملمة . وهم وأيم الحق كذابون مخادعون لا يريدون الا التضليل دائما وتهديد المستبد احيانا

فمن تلك الدلائل انهم لا يستصنعون الا الاسافل الاراذل ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر . ومنها انه قد يوجد منهم من لا يتنزل لقليل الرشوة ولكن لا يوجد فيهم من يأبى كثيرها . ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح مشاركة المستبد في امتصاص دم الامة ذلك باخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظه التي تعادل بضع اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم . ومنها انهم لا يصرفون شيئا ولو سراً من هذه الاموال الطائلة في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم اعداؤه ومنها ان احدهم قد يكون مسرفا مبذرا فلا تكفيه الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها في ظل شجرة العدالة ومنها انه قد يكون شحيحا مقترا في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف او ربع راتبه مع انه يقبضه زائدا على اجر مثله بحجة حفظ شرف المقام العائد لشرف الامة وبهذا الشح يكون خائناً ومهيناً

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان اوجد نادراً بعض وزراء ندموا على ما فرطوا فتابوا وانابوا ورجعوا لصف الامة واستعدوا للكفارة

المسيحية او الشهادة الاسلامية . كما ويوجد في كل زمان بعض شواذ من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد الاربعين وربما السبعين ظهورا بيناً تتلالأ في محياه ثريا الاخلاص

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له الا بالمتمجدين والامة المأسورة ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء حتى اذا اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها منها قادة ابرارا يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله في ذلك لذتهم ولمثله خلقهم: كما خلق آخرين فساقا فجارا امهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم

(الاستبداد والمال)

لو كان الاستبداد رجلا وأراد ان يحتسب وينتسب لقال « انا الشر وابي الظلم وأمي الاساءة واخي الغدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة»

ويصح في وصف المال ان يقال . القوة مال والعقل مال والعلم مال والدين مال والثبات مال والجاه مال والجمال مال والترتيب مال والاقتصاد مال. والحاصل كل ما ينتفع بثمرته الانسان هو مال. وكل هذه الاسباب وثمراتها معرضة لافساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام الا

العنكبوت بعد اخصابه ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان . ومن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله أي من مورده الطبيعي والانسان حريص علي التماسه من اخيه

عاش الانسان دهراً طويلا يأكل لحم الانسان فعلا الى ان تمكن حكماء الصين والهند من ابطال أكل اللحم كليا والى ان جاءت الشرائع الدينيه الاولى في الجهات السائرة ابتداء بتخصيص ما يؤكل من الانسان بالقربان الذي يذبح للمعبود . ثم ابقت القربان وجعلت الذبيحة طعمة للنيران حتى تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه . وقد استبدل الله عز شأنه على يد ابراهيم عليه السلام قربان البشر بالحيوان واتبعه موسي وباقي الانبياء عليهم السلام وبه جاء الاسلام. أما عيسى عليه السلام فانه استعاض قربان الحيوان بالخبز ولكن بقي ذلك مقصوراً على الكنائس ولم يعم

وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الآن. على ان الاستبداد المشؤوم أحيا سنة أكل البشر بشكل ادهي وأمر. وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من اعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم فصدا بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة

في اعمالهم او بغصب ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فرق بين الاولين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القائم في فطرة الانسان ولهذا رأيت ان لا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي . فمن ذلك

ان البشر المقدر مجموعهم بالف وخمسمائة مليون نصفهم كل على النصف لآخر وبشكل أكثرية هذا النصف . نساء المدن ومن النساء : النساء هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بانه هو الحافظ لبقاء الجنس وانه يكفي للالف منه ملقح واحد وان باقي الذكور يساقون للمخاطر والمشاق او يستحقون ما يستحقه ذكر النحل وبهذا النظر اقتسمن النساء مع الذكور اعمال الحياة قسمة ضيزى وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الاشغال وبدعوى الضعف وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بايهام العفة . وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان. وعلى هذا القانون يربون البنات والبنين ولهذا سماهم بعض الاخلاقيين بالنصف المضر . وقال ان الضرر يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف . فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة اعماله والحضرية

تسلب اثنين من ثلاث. والمدنيه تسلب خمسة من سته : وهكذا ترتقي بنت العواصم

ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضاً فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر اوزيادة ينفقونه في الرفه والاصراف مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها احيانا ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام

ثم اهل الصنائع النفيسه والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وامثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بواحد في المائة يعيش احدهم بمثل مايعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع. وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعده هى قسمة جاء بها الاستبداد السياسي.

نعم لا يقتضي ان يتساوي العالم الذى صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية ان ياخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغي وبغي ونسي ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه كانه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط لا شأن له غير الغذاء والتحاك . وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر اكبرهم للانسان في جمع المال ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم وبسر الوجود وروى كريسو المؤرخ الروسي ان كترينا شكت كسل رعيتها فارشدت الى حمل النساء على الخلاعة ففعلت واحدثت كسوة المراقص فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الاسراف . وهكذا المستبدون لا تهمهم الاخلاق انما يهمهم المال

المال عند الاقتصاديين ماينتفع به الانسان وعند الحقوقيين ما يجرى فيه المنع والبذل وعند السياسيين ما تستعاض به القوة وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة . المال يستمد من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها . ولا يملك أي لا يتخصص بانسان الا بعمل فيه أو في مقابلة

التمول اي ادخار المال طبيعة في بعض انواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا اثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه . الانسان تطبع علي التمول لدواعي

الحاجة المحققة اوالموهومة ولاتحقق للحاجة الاعندسكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها أوالاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول في البلاد المبتلات بجور الطبيعة اوجور الاستبداد. وربما يلتحق بها أيضاً الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية فى البلادالتى ينقصها الانتظام العام

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي جاء بها الاسلام ولكن لم تدم أكثرمن قرنين كان فيها المسلمون لايجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية وقدسبق أيضاحها أسست أيضا أصول هذه المعيشة التي يتمنى ماهومن نوعها أغلب العالم المتمدن الافرنجي مع انه تسعي وراءها منهم جمعيات منتظمة مكونة من ملايين كثيره ومع ان لها نوع من الاصل في الانجيل وهو تخصيص عشر الاموال للمساكين

وهذه الجمعيات تطلب التساوى اوالتقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر وتسعي ضدالاستبدادالمالى ذلك التساوي والتقارب المقرر أن في الاسلامية دينا بوسيلة أنواع الزكاة وتقسيمها على انواع المصارف العامة وانواع المحتاجين ولايخفى على المدقق ان جزءاً من

أربعين من رؤوس الاموال يلحق فقراء الامة باغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة باخلاق الافراد. وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية ملكا للعامة الامه يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال

ثم ان التمول لاجل الحاجات السالفه الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والا كان حرص التمول من أقبح الخصال. الشرط الاول ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أي باحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل أو في مقابل ضمان.

والشرط الثاني ان لا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات اومزاحمة الصناع والعمال الضعفاء او التغلب علي المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها مرحا لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن اجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا أصولا لحمايتها من ابنائها وحاولوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قدحماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده. وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مالا. وكم من البشر في اوربا المتمدنة وخصوصا

في لندره لا يجد احدهم أرضا ينام عليها متمددا بل يناموا في الطبقة السفلي حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يتمددون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية فيتلوون عليها يمنة ويسرة

وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين لا تجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد اكثر من مقدار معين من الارض لا يتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا اى اقل من خمسة افدنة مصريه . وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الاروبيين وضعت أخيرا لولايتها البولونية والغربية قانونا اشبه بقانون الصين وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمائة فرنك وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاما او قرن على الاكثر كايرلانده الانكليزيه المسكينة التي وجدت في مدى ثلاثة قرون شخصا واحدا حاول ان يرحمها فلم يفلح وأعني به غلادستون. على ان الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرنا من يلتمس الرحمة له

والشرط الثالث لجواز التمول. هو ان لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة فى الانسان فانه ليطغي ان رآه استغنى والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة

السياسية والاخلاقية والعمرانية حرمن الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب وبدون عمل ففيه الالفة على البطالة المفسدة للاخلاق وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك ومن المشاهد الذي لاخلاف فيه ان ليس من كسب لا عار فيه اربح من الربا مهما كان معتدلا وان بالربا تربو الثروات فيخل التساوي بين الناس

وقد نظر الماليون والاقتصاديون في امر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لابد منه . اولا لاجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانيا لاجل ان النقود الموجوده لا تفي للتداول فكيف اذا امسك المكتنزون قسما منها ايضا . وثالثا لاجل ان كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح او لا يقدرون عليها كما ان كثيرا من العارفين بها لا يجدون رؤوس اموال ولا شركاء عنان . فهذا النظر صحيح من وجه انماء ثروات الافراد والامم اما السياسيون والاخلاقيون فينظرون الى ان ضرر ذلك في جمهور الامم اكبر من نفعها لان هذه الثروات الافرادية تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين عبيدا وأسيادا وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة مالا وعدة وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك حرمت الديانات الربا تحريما مغلظا .

حرص التمول وهو الطمع القبيح يخف كثيرا عند أهالى الحكومات العادلة المنتظمة مالم يكن فساد الاخلاق متغلبا على الاهالى كا كثر الامم المتمدنة فى عهدنا لان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة الاسرافية . ولكن تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادله عسر جدا وقدلا يتأتي الا من طريق المراباة مع الامم المنحطه أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار او الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات

وهذا الحرص القبيح يشتد كثيرا في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدى على الحقوق العامة وبغصب ما في ايدى الضعفاء ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل انسان ترك الدين والوجدان والحياء جانبا وانحط في اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم أو احد اعوانه وعماله ويكفيه ان يتصل بباب أحدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له انه في الاخلاق من امثاله وعلى شاكلته . ويبرهن له ذلك باشياء من التملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس والدلالة على السلب ونحو ذلك . ثم بعد ان يتمكن ويطلع على بعض الخفايا والاسرار التي يخاف المستبد من ظهورها خوفا حقيقيا أو وهميا يكسب هذا المنتسب رسوخ القدم بل يصير هو بابا لغيره . وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته

الظروف علي الثبات طويلا . وهذا اعظم ابواب الثورة في الشرق والغرب ويليه الاتجار بالدين ويليه الربا ثم الملاهي

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة اضر كثيرا منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاولى يصرفون قوتهم المالية في افساد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد أما الاغنياء في الحكومات المستبدة فيصرفون ثروتهم في الابهة والتعاظم ارهابا للناس وتعويضا للسفالة الحقيقية بالتعالى الباطل ويصرفون الاموال في الفسق والفجور

بناءعليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف . وتزول ايضا والحمد لله قبل ان يتعلم أصحابها أو ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو وكيف يستعبدون بها الناس استعبادا أصوليًا مستحكما كما هو الحال في أوروبا المتمدنة المهددة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالى فيها

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فنقول . ان الاستبداد يجعل المال في أيدى الناس عرضة لسلب المستبد واعوانه وعماله غصبا أو بحجة باطلة وعرضة ايضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظل أمان الاستبداد . وحيث المال لا يحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة

حفظ المال في عهد الادارة المستبدة أصعب من كسبه لان ظهور اثره علي صاحبه مجلبة لانواع البلاء عليه . ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمه الله والتظاهر بالفقر والفاقة . ولهذا يقال في أمثال هؤلاء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل . ويقال العاقل من يخفى ذهبه وذهابه ومذهبه ويقال اسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه .

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء اعداءه فكراً واوتاده عملاً فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون ويستدرهم فيحنون . ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها اما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ويتحبب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرافة يقصد بذلك ان يغضب ايضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة خوف البغاث من العقاب فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار كانهم يتوهمون ان داخل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم باى وجه كان رضاؤه

قيل في مدح المال انه اكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال . وقالوا لا يصان الشرف الا بالدم ولا يتاتي العز الا بالمال . وورد في الاثر . ان اليد العليا خير من اليد السفلى وان الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

ولم يكن قديما أهمية للثروة العمومية أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال فاصبح للثروة العموميه أهمية عظمي لاجل حفظ الاستقلال على ان الامم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية فاصبحت منزلتها في المجتمع الانساني كالانعام تتناقلها الايدي

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف . وينظرون الي المال الزائد على الحاجة انه بلاء في بلاء في بلاء أى انه بلاء من حيث التعب في تحصيله وبلاء من حيث القلق على حفظه وبلاء من حيث ربطه صاحبه على وتد الاستبداد. واما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحا أمينا بعض الامن على دينه وشرفه وأخلاقه

قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكن انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد لا تنقصه فتذله ولا تزيد عليه فتطغيه. وهذا معنى الحديث (فاز المخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) ويقال الغنى غنى القلب . والغنى من قلت حاجته . والغنى من استغنى عن الناس . قال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع بنقصة مثل ما يملك فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجا الالف . وهذا معنى الحديث (لو كان لابن آدم وادمن ذهب «وفي رواية من غنم» لتمنى ان يكون له واد آخر)

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . أما المستبدون فلا يهمهم الان تستغني الرعية باى وسيلة كانت والغربيون منهم يعينون الامة علي الكسب والشرقيون لا يفتكرون في ذلك وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي التى منها ان الاستبداد الغربي يكون احكم وأرسخ وأشد ولكن مع اللين . والشرقى يكون مقلقلا سريع الزوال ولكنه مزعجا . ومنها ان الغربي اذا زال تبدل بحكومة عاذلة تقيم ماساعدت الظروف ان تقيم . اما الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شر منه لان من دأب الشرقيين ان لا يفكروا في مستقبل قريب كان أكبر همهم منصرف الى ما بعد الموت فقط

وخلاصة القول ان الاستبداد داء اشد وطأة من الوباء . اكثر هولا من الحريق . اعظم تخريبا من السيل . أذل للنفوس من السؤال . داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء والارض تناجى ربها بكشف البلاء . كيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقي الناس فيه العقلاء والاغنياء واسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء بل اسعدهم اولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الاحياء

الاستبداد والاخلاق

الاستبداد يتصرف في أكثر الاميال الطبيعية والاخلاق الحسنة

فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ويجعله حاقدا على قومه لانهم عون الاستبداد عليه . وفاقدا حب وطنه لانه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته لانه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها . ومختل الثقة في صداقة أحبابه لانه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئا ليحرص على حفظه لانه لا يملك مالا غير معرض للسلب ولا شرفا غير معرض للاهانه . ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها

وهذا الحال يجعل الاسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير اللذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها أين هو من الحياة الادبية أين هو من الحياة الاجتماعية . أما الاحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ولا يعرف ذلك الا من كان منهم او كشف الله عن بصيرته ومثال ذلك الشيوخ فانهم عندما تمسي حياتهم كلها أسقاما والاما ويقربون من أبواب القبور يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مقتبل العمر . في مقتبل الملاذ . في مقتبل الامال

الاستبداد يسلب الراحة الفكريه فيضني الاجسام فوق ضناها

بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوته في الناس .
والعوام الذين هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلي الى درجة
قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر في كل مالبس من ضروريات
حياتهم الحيوانيه ويصل تسفل ادراكهم الى ان مجرد آثار الابهة والعظمة
التي يرونها على المستبد واعوانه تبهر أبصارهم . ومجرد سماع الفاظ التفخيم
في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم فيرون ويفكرون
ان الدواء في الداء . فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين ايدي
الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهدة . الى مقر حتفها

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلا عن
الاجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب علي تلك الاذهان الضئيلة فيشوش
فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوى فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى
للاستبداد ومقاومتهم للرشد والارشاد مثل تلك الهوام التي تترامى علي
النار وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك . ولا غرابة في تأثير
ضعف الاجسام في اضعاف العقول فان في المرضي وخفة عقولهم وذوى
العاهات ونقص ادراكهم شاهدا بينا كما يظهر الحال أيضا بأقل تدقيق
نظر في فرق الصحة وغزارة الدم وقوة الاجسام وجمال الهيئات بين
جموع الاحرار وجموع الاسراء

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة

الاستبدادمن ان الاستبداد المشؤوم كيف يقوي على قلب الحقائق .
فأقول نعم الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان حتى انه قدمكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تأييدا لاستبدادهم . وقدوضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كلها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا . كما ان الاستبداداستخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا وقدقبل الناس من الاستبدادماساقهم اليه من اعتقادان طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحدوالخامل المسكين هو الصالح الامين. وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا والغيرة عداوة والشهامة عتواوالحمية جنوناوالانسانية حماقةوالرحمة مرضا. كما جاروه على اعتباران النفاق سياسةوالتحيل كياسةوالدناءة لطف والنذالةدماثة

ولاغرابة في تحكم الاستبدادعلي الحقائق في افكار البسطاءانما الغريب اغفاله كثيرامن العقلاءومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام لمجرد انهم كانوا اكثروافي قتل الانسان وأسرفوا في تخريب العمران ومن هذاالقبيل في الغرابةاعلاءالمؤرخين قدر من جاروا المستبدين وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف باسلافهم

المرحومين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان والمقربين

وقد يدخل على الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة ويسلمون له بها فيقولون الاستبداد يلين الطباع ويلطفها والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن ارادة واختيار. أو يقولون هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره والحق انه مع الكراهة والبغض لا عن ميل وحب . ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق فيه انه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين. ويقولون هو يقلل الجرائم والحق انه يخفيها فيقل تعديدها لا عددها

تفعل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انماء الشجر فالاقوام كالاجم ان تركت مهملة تزاحمت اشجارها وسقم اكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فاهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة وان صادفت بستانيا يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها قويت وأينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب أفسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة. ومتى كان البستاني او الحطاب غريبا لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار. انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الطامة وهناك البوار فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد

بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذى لا يرجي منه غير الافساد

لاتكون الاخلاق أخلاقاً ما لم تكن مطردة على قانون وهذا مايسمي عندالناس بالناموس. ومن أين لأسيرالاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح لا نظام ولا ارادة. وماهي الارادة هي أم ناموس الاخلاق. هي ماقيل فيها تعظيما لشأنها. لوجازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة. هي تلك الصفة التى تفضل الحيوان على النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الانسانية لانه يعمل بامر غيره لا بارادته. ولهذا قال الفقهاء لا نية للرقيق في كثير من احواله انما هو تابع لنية مولاه

أسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح فيضحي شجاعا كريما ويمسي فقيرا فيبيت جبانا خسيسا وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضي لا ترتيب فيها فهو يتبعها بلاوجهة. فالاسير لا يبغى على الاسير فيزجر اولا يزجر ويبغي عليه فينصر أولا ينصر ويجوع يوما فيضوى ويخصب يوما. فيتخم يريد أشياء فيمنع ويأتي شيئا فيرغم. ومن كانت هذه حاله كيف يكون له اخلاق وان وجد ابتداء فكيف لا يفسد

أقل مايؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم

على الفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان ويمين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان أكثر أعمالهم تبقي مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبي ذكر الفاجر بما فيه

اقوي ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحه والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور غليه لغير ذوى المنعة مع الغير وقليل ماهم وقليلا ما يفعلون وقليلا ما يفيد نهيهم لا يمكنهم توجيه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا بل ولا يملكون من أنفسهم شيئا وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصيه فقط مما لا يخفي على أحد أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقا ولا أقول غالبا من المتملقين المرائين وما أبعد هؤلاء عن التاثير لان النصح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت. أما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بامان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والاقوياء سواء ويفوّق سهام قوارصه علي ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام وهذا هو النصح الذي يهدى ويجدي

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الامور أطلقت الامم الحرة حرية الخطابه والتاليف بالمطبوعات مستثنية القذف

فقط. ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعيه أي الحريه. وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة «ولا يضار كاتب ولا شهيد»

وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العموميه السياسية. وذلك منطبق تماما على ما أمر به القرآن الكريم في آية «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وفي كمالة هذه الآية وهي «وأولئك هم المفلحون» من التبجيل ما يحمل من نفوس الأبرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها الممقوتة طبعا عند المستبد واعوانه

*
* *

الخصال تنقسم أولا الى حسنة طبيعية كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة وقبيحة طبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع. وثانيا الى خصال كمالية جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع وهذا القسم ربما يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه انما يمتثله المنتسب للدين احتراما او خوفا. والقسم الثالث الخصال

الاعتيادية وهي ما يكتسبه الانسان بالوراثة او بالتربية او بالالفة فيستحسن أو يستقبح على حسب امياله

ثم ان التدقيق يفيد ان الاقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض ويكون مجموعها تحت تأثير الالفة بحيث كل خصلة منها ترسخ او تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الالفة او انقطاعها فالقاتل مثلا لا يستنكر صنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الاولى. وهكذا يخف الجرم في وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كانه حق طبيعي له كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين فانهم يستبيحون اهراق الدماء لغاياتهم السياسية. ولهذا يصح وصف هذا الصنف بالجلادين ولا فرق في القتل بالسيف او القلم بقطع الاوداج أو بايراث الشقاء

وكذلك يكون أسير الاستبداد لا سيما اذا كان عريقا فيه فانه يرث شر الخصال ويتربى على أشرها ويصحبه الشر مدى العمر فمن اين تأتيه الخصال الحسان الا تكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية الفته الرياء اضطرارا حتى يصير ملكة فيه فيفقد الثقة من نفسه فلا يقدر ان يحكم عليها بخلق مستقر فيه فلا يمكنه مثلا ان يجزم بامانته أو يضمن ثباته فيعيش سيء الظن في حق ذاته مترددا في اعماله لواما نفسه على اهماله شؤونه شاعرا بنقصه لكن لا يشعر من أين أتاه فيتهم الخالق والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئا . ويتهم تارة دينه

وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه . والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حر افاسر

اجمع الاخلاقيون على ان المتبس بشائبة من القبائح الخلقة الاصلية لا يمكنه ان يقطع بسلامة غيره منها — وهذا معنى (اذا ساء فعال المرء ساءت ظنونه) فالمرائى مثلا ليس من شأنه ان يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء كليا. الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعدا كبيرا . كان يكون بينهما مغايرة في الجنس والدين أو تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وأمير كبير . ومثال ذلك الفلاح وامثاله في الشرق يأمن الافرنكي فى معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته وكذلك الافرنجي اذا عهد من نفسه الخيانة قد يأمن الشرقى ولا يأمن مطلقا ابن جنسه وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضا أى ان الامين يظن الناس أمناء خصوصا اشباهه في النشأة وهذا معنى (الكريم يخدع) وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقعة اللازمة

اذا علمنا ان من طبيعة الاستبداد الثقة الناس بعد الاخلاق الرديئة وان منها ما يضعف الثقة بالنفس ولذلك يقل فيهم أهل العمل وأهل العزائم كما يفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض فيعلم من ذلك ان الاسراء محرومون طبعا من ثمرة الاشتراك فى اعمال الحياة يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين والعاقل الحكيم لا يلومهم بل

يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجا ويتبع اثر أحكم الحكماء القائل (رب ارحم قومي فانهم لا يعلمون) اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون

وهنا استوقف المطامع واستلفته الى التأمل في ماهي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الاسراء فاذكره بأن الاشتراك هو أعظم سر الكائنات. به قيام كل شيء ماعدا الله وحده. نه اقام الاجرام السماوية. به قيام المواليد. به قيام حياة العالم العضوى. به قيام الاجناس والانواع. به قيام الامم والقبائل. به قيام العائلات وأعضاء الاجسام. نعم فيه سر الحياة. فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع. فيه سر تجديد الاستمرار على الاعمال التي لا تفي بها أعمار الافراد. نعم الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الامم المتمدنة. به أكملوا ناموس حياتهم. به ضبطوا نظام حكوماتهم. به قاموا بعظائم الامور. به نالوا كلما يغبطهم عليه غيرهم

ورب قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالامر الخفي وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ولم يندفع للقيام به في الشرق غير اليابانيين والبوير فما السبب. فاجيبه بان الكتاب كتبوا واكثروا واحسنوا فيما فصلوا وصوروا ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه جعلهم يحصرون أقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما يتبعه من التعاون والاتحاد والتحابب والاتفاق ومنعهم من التعرض لذكر الاسباب كليا. أو اضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسباب الاخيرة فقط. فمن قائل مثلا

الشرق مريض وسببه الجهل ومن قائل الجهل بلاء وسببه قلة المدارس . ومن قائل قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد أو من قبل ذوى الشأن

وهذا اعمق ما يخطه قلم الكاتب الشرقي كائنه وصل الى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري . والحقيقة ان هنالك سلسلة أسباب تنتهي عند التحول الى القيام بوظيفه لا ارشاد للزوم التخلص من الاستبداد . والسبيل الى تكاثر الطلاب

وقائل آخر يقول الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف مع انه لو تتبع الاسباب لبلغ الى الحكم بأن التهاون في الدين ناشيء من الاستبداد . وان العافية المفقودة هي الحرية السياسية فيرشد اخوانه الى طلبها ومهرها كثرة الطلاب

قد اتفق الحكماء الذين اكرمهم الله تعالى بوظيفة الاخذ بيد الامم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على ان فساد الاخلاق يخرج الامم عن أن تكون قابلة للخطاب وان معاناة اصلاح الاخلاق من أصعب الامور واحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القوي . وذكروا ان فساد الاخلاق يفشوا من المستبد وأعوانه من الوزراء الى الفراشين ومن القواد الى الانفار . ومن هؤلاء يدخل فساد الاخلاق بالعدوي الى كل البيوت . لاسيما بيوت

الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلي. وهكذا يتعمم الفساد وتمسي الامة يبكيها المحب ويشمت بها العدو. وتبيت وداؤها عياء لا يرجي له شفاء.

وقد سلك الانبياء عليهم السلام في انقاذ الامم من شقائها مسلك الابتداء أولا بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه. وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان. ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادىء الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته أي حريته في أفكاره: واختياره في اعماله وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد. ثم بعد اطلاق زمام العقول صاروا ينظرون الي الانسان بانه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الاخلاق فيعلمونه ذلك باساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الاقدمون اتبعوا الانبياء عليهم السلام في سلوك هذه الطريق وهذا الترتيب. أي بالابتداء من نقطة دينية توصلا لتحرير الضمائر ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع.

أما المتأخرون الغربيون فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بامهم من حظيرة الدين وآدابه النفيسة الي فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة زاعمين ان الفطرة في الانسان كافية لضبط النظام. وقد غرهم

بهذه الطريق زهوة مدخلها واعتقادهم ان الدين والاستبداد كلمتان بمعني واحد

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك انهم وجدوا أممهم قد فشا فيها نور العلم ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين. ومحتكرا في أبناء الاشراف عند الغرناطيين والرومان ومخصصا في أعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية العلم وأباحوا تناوله لكل متعلم فانتقل الي أوروبا حراً . فتنورت به عقول الامم على درجات وفى نسبة ترقت تلك الامم في النعيم وانتشرت وتخالطت وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنغص من حالته ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله .فنشأ من ذلك حركة معرفة الخير والغيرة على نواله حركة معرفة الشر والانفة من الصبر عليه حركة تستدعي السير الى الامام رغم كل معارض . فاغتنم زعماء الحرية قوة هذه الحركة وأضافوا اليها قوات أدبية شتى كاستبدال ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية حتى انهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس وكاستبدال رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك بحب الوطن . وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً سلطوه على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة والدين . على

ان هؤلاء الزعماء أخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) وقاعدة (تثقيل الذمة مبيح) ودفعوا الناس بها الي ارتكاب الجرائم الفظيعة التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والاخلاق

ثم الغربي مادي الحياة قوي النفس شديد المعاملة حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق فالجرماني مثلا جاف الطبع يري ان العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت. ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال فهو يحب العلم ولكن لاجل المال ويحب المجد ولكن لاجل المال . واللاتيني منه مطبوع علي العجب والطيش . يري العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء والشرف في الزينة واللباس . والعز في التغلب على الناس أما أهل الشرق فهم أدبيون ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها . واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل. ولهذا ليس من شان الشرقي ان يجوز ما يستبيحه الغربي وان جوزه لا يحسن استثماره ولا يقوي علي حفظه فالشرقي مثلا يهتم في شان ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه

والحاصل ان الحكماء المتأخرين الغربيين ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لاختصار الطريق فسلكوه واستباحوا اما استباحوا حتى انهم استباحوا في التمهيد بتشجيع المستبدين على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليهم وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الاخلاق وجعل الانسان انساناً

وقد سبق هؤلاء المتأخرين فئة اتبعت أثر النبيين ولم تحتمل بطول الطريق وتعبه فنجحت ورسخت وأعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم ياتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيس بل رقعوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحا لتجديد خليق اخلاقهم

وما احوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الاغبياء والرؤساء القساة الجهلاء يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى أصله المبين البريء من حيث تمليك الارادة والسعادة في الحياة من كل ما يشين . المخفف

شقاء الاستبداد والاستعباد المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين . الهي ؛ قيام التربية الحسنة واستقرار الاخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انساناً لا بالكفر يعيش الناس اخوانا

والشرقيون ماداموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم مرتاحين للهو والهزل تسكينا لآلام اساوة النفس واخلاداً الى الخمول والتسفل طلبا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف ينتظرون زوال العناد بالتواكل او التمني او الدعاء او يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الامم فليتوقفوا اذاً ان يفقدوا الدين كليا فيصبحوا وما الصبح عليهم ببعيد دهريين لا يدرون اى الحياتين أشقي أو فلينظروا ماحاق بالاشوريين والفينيقيين وغيرهم من الامم المنقرضة والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون

الاستبداد والتربية

خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد فابواه يصلحانه وأبواه يفسدانه اى ان التربية تربو باستعداده جسما ونفسا وعقلاً إن خيراً فخير وان شراً فشر . وقد سبق ان الاستبداد المشؤوم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . بناء عليه

تكون التربية والاستبداد عاملين متماكسين في النتائج فكل ماتبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته

استعداد الانسان لاحدّ لغايتيه فقد يبلغ في الكمال الى مافوق مرتبة الملائكة لانه هو المخلوق الذى حمل الامانة وقد أبتها كافة العوالم ويصح ان تكون هذه الامانة هى تخيير تربية النفس على الخير أو الشر وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين لأن الشياطين لا ينازعون الله في عظمته والمستبدون ينازعونه فيها ولكن لحاجة في النفس والمتناهون في الرذالة قد يتبجحون عبثا لالغرض حتى قد يتعمدون الاساءة لانفسهم

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ولكنها أهواء التربية تميل به الى يمين الخير أوشمال الشر فاذا شب يبس وبقي على أمياله مادام حيا بل تبقى روحه الى أبد الآبدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بايفاء حق وظيفة الحياة وما أشبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولذت له الاحلام وبالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وايلام

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين.

وهذه الملكة بعد حصولها ان كانت شرا تضافرت مع النفس والشيطان الخناس فرسخت وان كانت خيرا تبقى مقلقة كالسفينة في بحر الاهواء لا يرسو بها الا فرعها الديني أو الوازع السياسي مع المثابرة على العمل بمقتضاها . والاستبداد ريح صرصر فيه أعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن . وهو مفسد للدين في أهم قسميه أى الاخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لانها تلائمه في الاكثر . ولهذا تبقى الاديان في الامم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئا فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعا لفقدها في النفوس التى الفت ان تلجأ وتتلوى بين يدى سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ولهذا لا يستغرب فى الاسير الاليف تلك الحال ان يستعملها أيضا مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه

التربية تربية الجسم وحده الى ستتين وهي وظيفة الام وحدها ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة وهي وظيفة الابوين والعائلة معاً . ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تاتي تربية القدرة بالاقربين والخلطاء الى الزواج وهي

وظيفة الصدفة ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين الى الموت أو الفراق

ولا بد ان تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسي وتربية الانسان نفسه

*
* *

الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تربية الامة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بان تسن قوانين النكاح ثم تعتنى بوجود القابلات والملقحين والاطباء ثم تفتح بيوت الايتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبرى الى أعلى المراتب. ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحيي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية واعلاء الاحساسات الملية وتقوى الامال وتيسر الاعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعا الى ان تقوم باحتفالات جنائز ذوى الفضل على الامة. وهكذا الامة تحرص على ان يعيش ابنها راضيا بنصيبه من حياته لا يفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه بل يموت مطمئنا راضيا مرضيا آخر دعائه فلتحيي

الامة فتحيي الامة

أما المعيشه البشرية في الادارات المستبده فهي غنية عن التربية لانها محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعيه في الغابات والاحراش يسطو عليها الحرق والغرق وتحطمها العواصف والايدي القواصف ويتصرف في فسائلها وفروعها الفأس الاعمى فتعيش ما شاءت رحمة الحطابين ان تعيش والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم تثمر أو تعقم

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله ان طعم تلذذ وان تلهي تروح وتريض لانه هكذا رأى أبويه واقرباءه وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم . يراهم رجالا ونساء أغنياء وفقراء ملوكا وصعاليك كلهم دائبين على الاعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار ارثاً عن أبيه وجده . نعم يعيش العامل الناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة انه ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر . فيكون سعيدا بآماله ان لم يسارعه السعد في أعماله وكيفما كان يبلغ المنر عند نفسه وذويه بمجرد ايفائه وظيفة الحياة أي العمل . ويكون فرحا فخورا انجح أو لم ينجح لانه بريء من عار العجز والبطالة

أما اسير الاستبداد فيعيش خاملا خامدا ضائع القصد حائراً

لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه كانه حريض على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . ويخطيء من يظن أن أكثر الاسراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بالآم الاسر مستدلا بانهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته والحقيقة في ذلك انهم يشعرون باكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها . فيرى أحدهم نفسه منقبضا عن العمل لانه غير أمين على اختصاصه بالثمرة وربما ظن السلب حقا طبيعيا للاقوياء فيتمني ان لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ولا يدري أيضا ما السبب فيغضب على ما يسميه سعداً أو حظاً أو طالعاً أو قدراً

الاسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخروية فيعدها بجنان ذات افنان ونعيم مقيم أعد له الرحمن . ويبعدعن فكره ان الدنيا عنوان الآخرة وانه ربما كان خاسر الصفقتين . ولبسطاء الاسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعظمون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم . الدنيا سجن المؤمن . المؤمن مصاب اذا حب الله عبداً ابتلاه . هذا شأن آخر الزمان حسب المرء لقيمات يقمن صلبه . ويتناسون حديث (ان الله يكره العبد البطال) والحديث المفيد معنى (اذا قامت الساعة وفي يد احدكم غرسة فليغرسها) ويتغافلون

عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى مابعد استكمال الارض زخرفها وزينتها . وأين ذلك بعد

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل الذى يحول الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء فيرفع المسؤليه عن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر . بل على عاتق الاسراء المساكين أنفسهم . وأعنى بهذا السم سوء فهم العوام وبله الخواص لما ورد في التوراة من نحو (يد الله على قلب الملك) ولما ورد في الانجيل من نحو (اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله) و(الحاكم لا يتقلد السيف جزافا انه مقام للانتقام من أهل الشر) ولما ورد في الرسائل من نحو (فلتضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله) وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم « السلطان ظل الله في الارض» « والظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه » و « الملوك ماهمون» هذا وكل ماورد فى هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة أو يحتمل للتاويل بما يعقل وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التى فيها فصل الخطاب وهي (ألا لعنة الله على الظالمين) وآية (ولا عدوان الا على الظالمين)

التربية علم وعمل . وليس من شأن الامم المملوكة شؤونها ان يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها حتى لا يري الباحث

عندهم علما في التربية مدفونا في الكتب فضلا عن الاذهان . اما العمل فلا يتصور بلا سبق عزم وهو بلا سبق يقين وهو بلا سبق علم . وعندي ان هذا التسلسل هو المراد في حديث (انما الاعمال بالنيات) ثم ما أبعد الناس المغصوبة ارادتهم المغلولة ايديهم عن توجيه الفكر الى مقصد مفيد. او توجيه الجسم الى عمل نافع

نعم ما ابعد هؤلاء عن التربية وهي قصر النظر على المحاسن والعبر وقصر السمع على الفوائد والحكم وتعويد اللسان على قول الخير وتعويد اليد على الاتقان وتكبير النفس على السفاسف وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ورعاية الترتيب في الشؤن ورعاية الاقتصاد في الوقت والمال . والاندفاع بالكليه لحفظ الشرف لحفظ الحقوق ولحماية الدين لحماية الناموس ولحب الوطن لحب العائلة ولاعانة العلم لاعانة الضعيف ولاحتقار الظالمين لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما ينبت في رياض التربيتين العائلية والقوميه

الاستبداد يضطر الناس الى اباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس واماتة النفس الى آخره . وينتج من ذلك انه يربي الناس على هذه الخصال بناء عليه يرى الآباء ان تعبهم في تربية الابناء التربية الاولى لابد ان يذهب يوما عبثا تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدي

ثم ان عبيد السلطة التي لاحدود لها هم غير مالكين انفسهم ولا هم آمنون على انهم يربون اولادهم لهم بل هم يربون انعاماً للمستبدين واعوانا لهم عليهم . وفي الحقيقة ان الاولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الاباء على اوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق والاعتناء بالتربية حمق مضاعف . وقد قال شاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وانهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التي يحرمها أيضا الاغنياء الجهلاء عامة كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه الملذات الروحية. واما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات ان تيسرت والا فمزابل للنباتات ومنحصرة في استفراغهم الشهوة كأن اجسامهم خلقت دملا على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه. وهذا الشره البهيمي الناشىء عن فقد الملذات العالية المذكورة هو ما يرمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد مع ان المرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين

والاشرار من أعوانهم خصوصا في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف اهلها. ولهذا الضعف في لصقة الاولاد بازواج أمهاتها تأثير مهم في اضعاف الغيرة على تحمل مشاق التربية تلك الغيرة التى لاجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح

للسعة والفقر ايضا دخل كبير في تسهيل التربية وأين الاسراء من السعة كما ان لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ومعيشة الاسراء اغنياء كانوا أو معدمين كلها خلل في خلل وضيق في ضيق .فما ابعد الاسراء اذن عن التربية . ثم ليت شعري لماذا يتحمل الاباء الاسراء مشاق التربية وهم ان نوروا اولادهم جنوا عليهم بتقوية احساسهم فيزيدونهم شقاء ويزودونهم بلاء ولهذا لاغرو ان يختار الاسراء الذين فيهم بقية من الادراك ترك اولادهم هملا تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء

واذا افتكرنا كيف ينشأ الاسير فى البيت الفقير وكيف يتربي . نجد انه يلقح به وفي الغالب أبواه متنا كدان متشاكسان.ثم اذا تحرك جنينا حرك شراسة امه فشتمته أوزاد آلام حياتها فضربته . فاذا ماتماضيقت عليه مقره لاالفتها الاشخاء خمولا اوالتضرر صغارا او التقاص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً او جهلا فاذا بكي تألما سدت فمه بثديها أوقطعت نفسه -

بدوار السرير أوسقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطيب فاذا ما فطم
ياتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه. فان كان
طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت فان سأل
واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه. فاذا قويت رجلاه
يدفع به الى خارج الباب الى مدرسة الالفة على القذارة وتعلم صيغ
الشتائم والسباب. فان عاش ونشأ وضع في مكتب او عند ذي صنعة
ويكون اكبر القصد ربطه عن السراح والمراح. فاذا بلغ الشباب
ربطه اولياؤه على وتد الزواج كي لا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ويجنى
على غيره كما جنى عليه ابواه. ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى
بتثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمه ويتولى المستبدون الضغط
والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله وهكذا يعيش الاسير من
حين يكون نسمة في ضيق وضغط يهرول ما بين وداع سقم
واستقبال سقم الى ان يستقبله الموت مضيعا مع آخرته فيموت غير
آسف ولا مأسوف عليه

ولا يظنن المطالع ان حالة الاغنياء أسراء هي خير من هذا
بكثير انهم اذا نغصتهم بعض المنغصات تزيد فيهم مشاق انتظاهر
بالراحة والرفاه العزة والمنعة تظاهراً ان صح قليله فكثيره الكاذب
حمل ثقيل على عواتقهم

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام فهي حياة لا روح فيها . حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم لا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية . ولو لا ان ليس في الكون شيء غير تابع للنظام حتى فلتات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة . لحكمنا بان معيشة الاسراء هي محض فوضى لا شبه فوضى . على ان التدقيق العميق يفيدنا بان للاسراء قوانين غريبة في مقاومة الفناء لا يمكن ضبطها انما الاسير يرضعها مع لبن أمه ويتربى عليها ويبدع فيها بسائق الحاجة ويكون الحاذق فيها علما الماهر في تطبيقها عملا هو الموفق في ميدان تنازع البقاء والعاجز عنها يتعجل له الزوال لاسيما اذا جاءه العجز من جهة زلاقة اللسان أو كبر النفس أو قوة الاحساس أو جسارة الجنان فانه الهالك لا محالة

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به التي تضطره لان يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها . وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر . وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاولة واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع استعمال سياسة الشد والارخاء والكسب مع شكاية الحاجة . وحفظ المال بالاخفاء والتغاضي عن زلات المستبد . والتصامم عن سماع ما يحكي عليه . والتظاهر بفقد الحس . وستر العلم بالتجاهل والعقل بالتباله .

وعزو كل خير الى المستبد وان كان نحو مطر فالى يمنه . واسناد الشرور الى الاستحقاق . والمطالبة بالحقوق بصفة استعطاف . الى غير ذلك من قانون الاسارى الذى رؤوس مسائله تمل القاري فضلا عن تفصيلاتها . هذا واخوف ما يخافه الاسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في المال أو الجسم فتصيبه عين الجواسيس (وهذا اصل عقيدة اصابة العين) او أن يظهر له شأن في علم أوجاه أونعمة مهمة فيسعي به حاسدوه الى المستبد (وهذا أصل شر الحسد الذى يتعوذ منه) وقد يتحيل الاسير على حفظ ماله الذى لا يمكنه اخفاءه كالزوجة الجميلة أوالدابة الثمينة أوالدار الكبيرة فيحميها باسناد الشؤم «وهذا أصل التشاؤم بالاقدام والنواصى والاعتاب»

وقد اتضح مما تقدم ان التربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من شر الظالمين وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد أجمع علماء السياسة والاخلاق والتربية على ان الاقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب وعلى هذه بنوا قولهم ان المدارس تقلل الجنايات لا السجون ووجدوا ان القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي

لا ترجع الانفس عن غيها ... مالم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولى الالباب (ملاحظا ان معنى القصاص لغة هو التساوي ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام يري ان الاعتناء في طريق الهداية منصرف فيها الى الاقناع ثم الى الاطماع عاجلا أو آجلا ثم الى الترهيب الاجل غالبا ومع ترك ابواب تدلى الى النجاة

ثم ان التربية التي هي ضالة الامم وفقدها هو المصيبة العظمي في الشرق هي التربية المرتبه علي اعداد العقل للتمييز ثم على حسن التفهيم والاقناع ثم على التمرين والتعويد ثم على حسن القدوة والمثال ثم على المواظبة والتمادي .فاذا كان مطمع في التربية العامة على هذه الاصول بمانع طبيعة الاستبداد فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا ان يسعوا أولاً وراء ازالة المانع الضاغط علي العقول . ثم يعتنو بالتربية حيث يمكنهم حينئذ ان ينالوها علي توالى البطون. والله الموفق

الاستبداد والترقي

الحركة سنة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط . فالترقي هو الحركة الحيويه أى حركة الشخوص ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب.

وهذه السنه كما هي عاملة فى المادة واعراضها عاملة أيضا أي في الكيفيات ومركباتها والقول الشارح لذلك آيه (ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) وحديث (ماتم أمر الا وبدا نقصه) وقولهم التاريخ يعيد نفسه. وحكمهم بان الحياة والموت حقان طبيعيان

وهذه الحركه لا تقتضي السير الى النهايه شخوصا أو هبوطا بل هي اشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن والعبرة في الحكم للوجهه الغالبه . فاذا راينا في امه آثار حركة الترقي هي الغالبه على افرادها حكمنا لها بالحياه . ومتى راينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت وذلك لان الامه هي مجموع افراد يجمعها نسب الوطن اولغه او دين كما ان البناء مجموع انقاض . فاذا ترقي او انحط فرد واحد من امه اثر ذلك في مجموع تلك الامه . كما اذا وقفت بعوضه على طرف سفينة عظيمه اثقلتها واما لتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالمشاعر

الترقي الحيوي الذى يسعي وراءه الانسان بفطرته هو اولا الترقي في الجسم صحة وتلذذا ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة . ثم الترقي في القوه بالعلم والمال . ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر

وهنالك نوع آخر بالترقي يتعلق بالروح وهو ان الانسان يحمل نفسا ملهمة بان لها وراء حياتها هذه حياة اخرى ترقي اليها على سلم الرحمة والحسنات . فاهل الاديان يؤمنون بالبعث اوالتناسخ فيرجون مكافأة ويخافون مجازاة . ومن هم من قبيل الطبيعيين يهتمون بالحياة التاريخية بحسن الذكر او قبحه

وهذه الترقيات على انواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها مالم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته وهذا المانع اما هو القدر المحتوم المسمى عند البعض بالعجز الطبيعي او هو الاستبداد المشؤم على ان القدر قد يصدم سير الترقي لمحة ثم يطلقه فيكر راقيا . وأما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقي الى الانحطاط . من التقدم الى التأخر . من النماء الى الفناء ويلازم الامة ملازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها دهرا طويلا أفعاله التى تقدم وصف بعضها في الابحاث السابقة . افعاله التى تبلغ بالامة حطة العجماوات فلا يعود يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط بل تكون حياتها هذه الدنيئة ايضا مباحة للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحول ميلها الطبيعى

من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دفعت الى الرفعة لابت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور واذا الزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الاهليه اذا اطلق سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الامة ولا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها

وقد توصف حركة الترقي والانحطاط فى الشؤون الحيوية للانسان بانها من نوع الحركة الدودية التى تحصل بالاندفاع والانقباض . وذلك ان الانسان يولد وهو أعجز حراكا وادراكا من كل حيوان . ثم يأخذ في السير تدفعه (الرغائب) النفسية والعقلية وتقبضه (الموانع) الطبيعية والمزاحمة . وهذا سر ان الانسان يتنابه الخير والشر وهو سر ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر . وهو معنى ما ورد فى الاثر من ان الخير مربوط بذيل الشر والشر مربوط بذيل الخير . وهو المراد من أقوال الحكماء نحو . على قدر النعمة تكون النقمة . على قدر الهمم تأتي العزائم . بين السعادة والشقاء حرب سجال . العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره

اذا تقرر هذا فليعلم أيضاً ان سبيل الانسان هو الى الرقي

ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهربائية . وسبيله القهقرى ان غلبته الطبيعة أو المزاحمة . ثم ان الاندفاع ان غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة . وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ . أما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل . والقوى منه مهلك مسكن للحركة . والاستبداد المشؤوم الذى نبحث فيه هو نابض ضغط مسكن والمبتلون به هم المساكين

أسراء الاستبداد ولا سيما الفقراء منهم كلهم مساكين لاحراك فيهم فيعيشون منحطين في الادراك منحطين في الاحساس منحطين في الاخلاق . وما أظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الارشاد وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة . وما اليق باللاعين ان يكونوا مشفقين فيسعوا في رفع الصخرة ولو حتاً بالاظافر ذرة بعد ذرة

قد أجمع الحكماء على ان أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الامم الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التى

تعطر المخاوف

وعلى ذكر اللوم الارشاد لاح لي ان أصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ماهم عليه من الصبر على الذل والسفالة . فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم بنحو الخطابات الآتية

ياقوم ينازعني والله الشعور هل موقفي هذا في جمع حي احييه بالسلام أم أنا أخاطب اهل االقبور فاحييهم بالرحمة ياقوم لستم باحياء عاملين ولا أموات مسترحين بل انتم بين بين في برزخ يسمى التنبت ويصح تشبيهه بالنوم

(يا قوم هداكم الله ما هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم وعز كريم افلا تنظرون وما هذا التاخر وقد سبقتكم الاقوام الوف مراحل حتى صار ما بعد ورائكم وراء افلا تبعون . وما هذا الانخفاض والناس في اوج الرفعة افلا تغارون

ياقوم وقاكم الله من الشر انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل . و بداء الحرص على كل عتيق . فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والامور

السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم . أين الدين أين التربية أين الاحساس أين الغيرة أين الجسارة أين الثبات أين الرابطة أين المنعة اين الشهامة أين النخوة أين الفضيلة أين المواساة هل تسمعون أم أنتم نائمون)

ياقوم عافاكم الله الى متى هذا النوم والى متى هذا التقلب علي فراش البأس ووسادة اليأس . أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام لكم ابصار ولكنكم لاتنظرون وهكذا لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ولكم سمع وشم وذوق ولمس ولكنكم لا تشعرون بها ماهي اللذائذ حقاً وما هي الآلام . ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بزعجات الاوهام الاحلام ولكم نفوس ولكن لا تعرفون لها قدراً ومقاماً

« ياقوم قاتل الله الغباوة فانها تملا القلوب رعباً من لاشئ وخوفا من كل شيء وتعم الرؤوس تشويشا وسخافة أليست هي الغباوة جعلتكم كانكم قد مسكم الشيطان فتخافون من ظلكم وترهبون من قوتكم وتجيشون منكم عليكم جيوشا لبقتل بعضكم بعضاً . تتراموب علي الموت خوف الموت وتحسبون طول العمر فكركم في الدماغ ونطقكم في اللسان واحساسكم في الوجدان خوفا من ان يحس الظالمون أرجلكم أيلما »

ياقوم أعيذكم بالله من فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون أثرا للرشد في ان يوكل الانسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف في ماله واهله والتحكم في حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عيث وخيانة واسراف واتلاف ام ترون ان هذا نوع من الجنة به يظلم الانسان نفسه . بلى (ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون)

ياقوم شفاكم الله قد ينفع القوم الانذار واللوم واما غدا اذا احل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء فالى متى هذا التخادع والى متى هذا التواني . والى متى هذا التواكل هل طاب لكم هذا الذل وتودون لو تصحبونه في القبور . ام عاهدتم انفسكم ان تصلوا غفلة الحياة بالممات فلا تفيقوا من السبات قبل صباح يوم النشور

ياقوم رحمكم الله ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة . ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب . هل لكم في هذا الصبر فخر اولكم عليه اجر كلا والله ساء ما تتوهمون ليس لكم الا القهر في الحياة وقبيل الذكر بعد الممات لانكم ما افدتم ولا استفدتم من الوجود بل التقمتم ما ورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف .

ياقوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حدب ينسلون فان وجدوكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الاقران وان وجدوكم رقوداً لا تشعرون سلبوا اموالكم وزاحموكم على ارضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالانعام. وعندئذ لو اردتم حراكا لا تقوون وتجدون في وجوهكم الابواب موصدة والمسالك مسدودة لا نجاة ولا مخرج

ياقوم هون الله مصابكم تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون في اصلاحهم. تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكرون في احكامها. تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل هل ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضا ولا تخدعون الا انفسكم ترضون بادني المعيشة عجزا تسمونه قناعة وتهملون شؤونكم تهاونا تسمونه توكلا تموهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر الا والله ماهذا شان البشر

(ياقوم سامحكم الله . لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار ألم يخلقكم احراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فابيتم الا ان تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء لوشاء كبيركم ان يحمل صغيركم كرة الارض لحنى له ظهره ولوشاء ان يركبه لطأطأ له رأسه ماذا

استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله وماذا تؤملون من تقبيل الاذيال والاعتاب. اليس منشأ هذا الصغار والهوان هو ضعف ثقتكم بانفسكم كانكم عاجزون عن تحصيل ماتقوم به الحياة وحسب الحياة لقيمات من نبات تعمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق. لاضعف الحيوان . فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لاينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء اوموضع الشيخ الفاني الذي لاينال حاجته الا بالتملق والدعاء

(يا قوم رفع الله عنكم المكروه ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقدخلقكم ربكم اكفاء في البنية اكفاء في القوة اكفاء في الطبيعة اكفاء في الحاجات لايفضل بعضكم بعضا الا بالفضيلة لاربوبية بينكم ولا عبودية والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو دري الصغير بوهمه العاجز بوهمه . ما في نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضي الامر الذي فيه تختلفون وفيه تشقون)

(يا قوم جعلكم الله من المهتدين. كان اجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان. واجدادكم يناموون الآن في قبورهم مستوين اعزاء وانتم احياء معوجة رقابكم أذلاء البهائم تودلو تنتصب قاماتها وانتم

من كثرة الخضوع كادت تصير ايديكم قوائم . النبات يطلب العلو وانتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تنغرسوا في جوفها. فان كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلا لتناموا فيها طويلا)

(ياقوم الهمكم الله الرشد متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء انظاركم وتميل الى التعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته يملك ارادته واختياره ويثق بربه ونفسه لا يتكل على احد من خلق الله اتكال الغاصب على مال الغافل او الكل على سعي العامل بل يعتمد على المبادلة والتعاوض وحينئذ يظهر بينكم حكم التضامن والتقاضي فتصيرون بنعمة الله اخوانا)

« ياقوم أبعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ان كانت المظالم غلت أيديكم وضيقت أنفاسكم حتى صغرت نفوسكم وهانت عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوي عندكم الجد والجهد وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون. فهلا تخبروني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت . أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاءون لا كما يشاء الظالمون هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت . كلا والله : ان أنا أحببت الموت أموت كما أحب لئيماً أو كريماً حتفاً أو شهيداً فان كان الموت ولا بد فلماذا الجبانة وان

أردت الموت فليكن اليوم قبل الغد وليكن بيدي لا بيد عمرو . أليس

وطعم الموت في شئ حقير كطعم الموت في شئ عظيم

« يا قوم أناشدكم الله الا أقول حقا اذا قلت انكم لا تحبون الموت بل تحرصون على الحياة ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت الى الموت ولو علمتم السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة . وان الخوف من التعب تعب والاقدام على التعب راحة وان الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح . والاسارة هي شجرة الزقوم وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق

« يا قوم وأعني منكم المسلمين قال نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم (لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب) وقال (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان)

وأنتم تعلمون اجماع أئمة مذاهبكم كلها على ان أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي فشا فيكم ثم قتل النفس ثم وثم وقد أوضح العلماء ان تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضاً في الله . بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر أو يجامله ولو

بالسلام يكون قد خسر أضعف الايمان وما بعد الاضعف الا العدم أي فقد الايمان والعياذ بالله

ولا أظنكم تجهلون ان كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغني شيئا مع فقد الايمان . انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الاموال والاوقات

بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ولا أقل في هذا الباب من أبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين وأظنكم اذا تأملتم قليلا ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم يكفي لانقاذكم مما تشكون . والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه . ولو أهمله كافة المسلمين ولو أن أجدادكم الاولين قاموا به لما وصلتم الى ما أنتم عليه من الهوان

« يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاساآت والاحقاد . وما جناه الاباء والاجداد . فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين واجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون

الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري فما بالنا نحن لا نفتكر في أن تتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي (فلتحي الامة فليحي الوطن فلنحي طلقاء أعزاء)

أدعوكم وأخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير أليس مطاق الغربي أخف استحقاراً لاخيه من الغربي هذا الغربي قد أصبح مادياً لا دين له الا الكسب فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذباً . هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق الا كما يغرد الصياد وراء الاشباك . الغربي أرقى من الشرقي علماً وثروة ومنعة فله على الشرقيين اذا واطنهم السيادة الطبيعيه . أما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون . الغربي يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود

والتاتار . وكما هو شأن دول الاستعمار . الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنه تاجر مستمتع فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التى لا يفتأ يفتخر برياضها ويحن الى ارياضها

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها وعلى الروس في قازان مثل ما أقمنا في الاندلس ولكن ماخدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناهما ودخل الفرنساويون الجزاير منذ سبعين عاما ولم يسمحوا بعد لاهلها بجريدة واحدة تقرأ . نرى الانكليزي فى بلادنا يفضل قديد بلاده وسمك بحاره على طرى لحمنا وسمكنا فهلا والحالةهذه تبتصرون ياأولى الالباب

وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذادهاك ماذا أتعمك عن مسراك أليست أرضك تلك الارض ذات الجنان والافنان ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الانوار ومهبط الحكمة والاديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل لا العواصف والضباب. وماؤك ذاك المذب الغدق لا الكدر ولا الاجاج

رعاك الله ياشرق . ماذا أصابك أأخل نظامك والدهر ذاك الدهر ماغير وضعك ولا بدل شرعه فيك الم تزل مناطقك هي المعتدلة وبنوك هم الفائقون فطرة وعدداً اليس نظام الله فيك على عهده الاول ورابطة الاديان في بنيك محكمة قوية مؤسسة على عبادة الصانع

الوازع اليست معرفة المنعم حقيقة راهنه أشرقت فيك شمسها أيدت بها عز النفس واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس

رعاك الله يا شرق ماذا عراك وسكن منك الحراك الم تزل أرضك واسعة خصبة . ومعادنك وافية غنية وحيوانك رابيا متناملا وعمرانك قائما متواصلا . وبنوك على ماربيتهم أقرب للخير من الشر اليس عندهم الحلم المسمي عند غيرهم ضعفا في القلب وعندهم الحياء المسمي بالجبانة وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف وعندهم القناعة المسماة بالعجز وعندهم العفة المسماة بالبلاهة . وعندهم المجاملة المسماة بالذل . نعم ماهم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ولا من الاضرار ولكن مع الخوف من الله

رعاك الله ياشرق . لا نرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبنيك ويستلزم ذلهم لبنى أخيك فلماذا قد أصبحت اذا انقطع عنك مدد أخيك بمصنوعاته يبقى ابناؤك عراة حفاة في ظلام بل يغنيهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسى بل الحجري الموصوف بعصر التفنين

رعاك الله ياشرق. بل رعى الله اخاك الغرب العائل بنفسه

والمائل فيك وقاتل الله الاستبداد بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقي في الحياة المنحط بالامم الى أسفل الدرجات الا بعداً للظالمين

رعاك الله ياغرب . وحياك و بياك قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت وأحسنت الوصاية وهديت وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ احرارك لاعانة انجاب أخيك على هدم ذاك السور سور الشؤوم والشرور ليفرحوا باخوانهم الى أرض الحياة أرض الانبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة

يا غرب لا يحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته . وفقد الدين يهددك بالخراب القريب فماذا اعددت للفوضيين اذ صاروا جيشا جراراً هل تعدلهم المواد المتفرقة وقد جاوزت انواعها الالف أم تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان

ياقوم واريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد أعيذكم من الخزى والخذلان بتفرقة الاديان واعيذكم من الجهل جهل الدينونة لله وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

أناشدكم ياناشئةالاوطان ان تعذروا هؤلاء الواهنةالخائرة قواهم واسئلكم عفوهم من العتاب والملام لانهم مرضي مبتلون مثقلون بالقيود ملجمون بالحديد يقضون حياة خير ما فيها انهم آباؤكم

قد علمتم يانجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية التأمل والتدبر فاعتبروا بناواسألوا الله العافية . نحن ألفنا الادب مع الكبير ولو داس رقابنا . الفنا الثبات ثبات الاوتاد تحت المطارق . الفنا الانقياد ولو الى المهالك . الفنا ان نعتبر التصاغر ادبيا والتذلل لطفا والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعا والرضا بالظلم طاعة ودعوى الاستحقاق غرورا والبحث عن العموميات فضولا ومد النظر الى الغد أملا طويلا والاقدام تهورا والحميه حماقة والشهامة شراسة وحرية القول وقاحة وحرية الفكر كفرا وحب الوطن جنونا

أما أنتم حما كم الله من السوء فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك . ان تنشأوا على التمسك باصول الدين دون أوهام المتفننين فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها وتعرفوا قدر ارواحكم وانها خالدة تثاب وتجزي وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون

غير الصانع الوازع العظيم ونرجو لكم ان تبنوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم الشيم لا على عظام نخرة. وان تعلموا انكم خلقتم احراراً لتموتوا كراما فاجهدوا ان تحيوا تلكما اليومين حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم ان يكون سلطانا مستقلا في شؤونه لا يحكمه غير الحق وشريكا أمينا لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء وولداً باراً لوطنه لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله . ومحبا للانسانية يعلم على ان خير الناس أنفعهم للناس . يعلم ان الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط . والحياة هي الامل ووباء الامل التردد ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله مايعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعي والعمل ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض من عمل اخوانه البشر فلا يتخيل في نفسه عجزاً ولا يتوقع الا خيراً وخير الخير أن يعيش حراً أو يموت

ياقوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد. هذا خطابي اليكم فيما هو الترقي وماهو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيابشراي والسلام عليكم والا فياضياع الانفاس وعلى الرفاة السلام

الاستبداد الذي يبلغ فى الانحطاط بالامه الى غاية ان تموت ويموت هو معها كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه. إما بلوغ الترقي بالامم الي المرتبة القصوى الساميه التى تليق بالانسانية فهذا

لم يسمح الزمان حتى الآن بامة تصلح مثالا له حيث لم توجد أمة حكمت نفسها برأيها العام حكماً لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام او بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني او الجنسي بين الناس فكان الحكمة الالهية لم تزل تري البشر غير متاهلين لنوال سعادة الاخوة العمومية بالتحابب بين الافراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات. نعم وجد للترقي القريب من الكمال بعض امثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية الثانية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين وكازمنة المنقطعة في عهد بعض الملوك المنظمين لا الفاتحين مثل انيشروان وعبد الملك الاموى ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير . وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان واني اقتصر على وصف منتهى الترقي الذى وصلت اليه تلك الامم وصفاً اجماليا واترك للمطالع ان يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الامم

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في ارض الاستبداد الذى لم يدرس احوال الامم في الوجود ولا عتب عليه فانه كالمولود أعمى لا يدرك للمناظر البهية معنى

قد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته

الاديان لاهل السعاده في الجنان حتى ان كل فرد يعيش كانه خالد بقومه ووطنه وكانه أمين على كل مطلب

(١) أمين على السلامه في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التى لاتغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره

(٢) أمين على الملذات الجسيمة والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة المتعلقة بالترويضات الجسيمة والنظرية والعقلية حتى يخال له ان تسهيل الطرقات والتزيينات البلدية والمتنزهات والمنتديات والمدارس والمجامع ونحو ذلك قد وجدت كلها لاجله خاصة

(٣) أمين على الحرية كانه خلق وحده على سطح هذه الارض. فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل

(٤) أمين على النفوذ كانه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الامة التى هو منها

(٥) أمين علي المزية كانه في امة يساوى جميع افرادها منزلة وشرفا فلا يفضل هو علي أحد ولا يفضل احد عليه الا بمزية سلطان الفضيلة فقط

(٦) أمين علي العدل كانه هو القابض علي ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفا وهو الثمن فلا يحذر بخسا وهو المطمئن علي انه اذا استحق ان يكون ملكا صار ملكا واذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة

(٧) أمين على المال والملك كأن ما احرزه بوجهه المشروع قليلا كان او كثيرا قد خلقه الله لاجله فلا يخاف عليه كما انه تقلع عينه ان نظر الى مال غيره

(٨) أمين على اشرف بضمان القانون بنصرة الامة ببذل الدم فلا يرى تحقيراً الا لدى وجدانه ولا يعرف طعماً لمرارة الذل والهوان والصغار

وقد يبلغ الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة أن يعيش الانسان معتبراً نفسه عضواً حقيقيا من جسم . فالجسم الحي عند المتمدنين هو مجموع الامة . والانقسام الى عائلات وأفراد هو من قبيل انقسام المدينة الى بيوت والبيوت الى مرافق وكما أنه لا بد لكل مرفق من وظيفة يصلح لها والا كان بناؤه عبثا يستحق الهدم كذلك الافراد في الامم لا بد ان يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة قومه . ولهذا يكون من لا يصلح لوظيفة أو لا يقوم بما يصلح له بل يريد أن يعيش كلا عليهم لا عن عجز طبيعي حقيراً يستحق الموت لا الشفقة لانه كالدرن في الجسم أو الزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض والسكر المعطل عن العمل والمقامرة والربا لانهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الناس الكناس

عن الحجام لان صنعته أنفع للجمهور وهكذا صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر

الانسان الحر مالك لنفسه تماماً ومملوكا لقومه تماماً . ومتى يبلغ ترقى التركيب في أمة لهذه المرتبة بحيث يصير كل فرد مستعداً لان يفتدى أمته بماله وروحه فعندئذ تصبح الامة في غنى عن ماله وروحه

أما الترقى في العز بالعلم والمال فيتميز على باقى الترقيات تميز الرأس على باقى اعضاء الجسم فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ومركزيه أكثر الحواس تميز على باقى الاعضاء واستخدمها في حاجاته فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة فيكون لهم سلطان طبيعي على الافراد والامم التى انحط بها الاستبداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقر .

بقى علينا بحث الترقي في الكمالات بالخصال والاثرة وبحث الترقي الذى يتعلق بالروح أي بما وراء هذه الحياة ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات فهذه أبحاث طويلة الذيل ومنابعها حكميات الكتب السماوية ومدونات الاخلاق وتراجم مشاهير الامم

واكتفى بالقول في هذا النوع انه يبلغ بالانسان مرتبة ان لا يرى لحياته أهمية الا بعد درجات . الاولى منها حياة أمته ثم حريته ثم شرفه ثم عائلته ثم وثم . وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله .

قومه البشر ووطنه الارض كما انه قد يترفع عن الامارة لما فيها من معنى الكبر وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل فيرى الشرف كل الشرف في القلم ثم المحراث ثم المطرقة وخلاصة القول ان الامم التي أسعدها جدها لتبديد استبدادها نالت من الشرف الحسى والمعنوي ما لا يخطر على فكر أسراء الاستبداد . فهذه باجيكا أبطلت التكاليف الاميرية برمتها مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة وهذه سويسره يصادفها كثيراً ان لا يوجد في سجونها محبوس . وهذه امريكا اثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع . وهذه اليابان اصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا واميركا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع مؤلفاتها

نعم وقد نالت ايضاً تلك الامم حظا من الملذات الحقيقية التى لا تخطر على فكر الاسراء كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاسراء والبذل ولذة احراز الاحترام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه من الملذات الروحية وأما الاسراء والجهلاء فملذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في جعلها بطونها مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات وعلى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملا على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد

ودفعه.

وأتم ما بلغه الترقي في البشر هو احكامهم أصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سداً متيناً في وجه الاستبداد وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع والشرع هو حبل الله المتين. وبجعلهم قوة التشريع في يد الامة والامة لا تجتمع على ضلال. وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتكاد تحاكي في عدالتها المحكمة الكبرى الالهية وبجعلهم مأموري الحكومة القائمين بالاعمال العمومية لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم كأنهم ملائكة لا يعصون أمراً وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون وهكذا لما اعتدوا الاصلاح شؤونهم نجاهم الله من الهلاك. وهلاك الاستبداد. لانه تعالى شأنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

هذا مبلغ الترقي الذي وصلت اليه الامم منذ عرف التاريخ على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقي البشر في السعادة الحيوية كما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية حتى منذ كانوا عراة يسرحون اسرابا والآثار المشهورة لا تدل على اكثر من ترقي العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء وترقيهما

هو من سنة الـكون التي أرادها الله تعالى لهذة الارض و نبيها ووصف لنا ما سيبلغ اليه ترقي زينتها واقتدار اهلها بقوله عز شأنه (حتى إذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلاً أو نهاراً فجعلها حصيداً كان لم تغن بالامس) وهذا يدل على ان الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقي لا كما يظن الخاملون الذين كانهم خلقوا اذى أو سدى

الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا في هذا الباب مدرسة اعظم من التاريخ الطبيعي والعمومي ولا برهان أقوى من الاستقراء . ومن تتبعهما يرى ان الانسان عاش دهرا طويلا في حالة طبيعية بطوناً واسراباً يسوسه الشيوخ الاكثر خبرة ويقوده الاقوياء بنية . ثم عاش حينا من الدهر في حالة بدوية عشائر وقبائل يسوسه شيوخ البطون والافخاذ تحت رئاسة أمير منفذ لما يقررون لا يداخلهم في الرأى غالبا وهم يتبعون نظاما بسيطا اداريا ولهم قواعد قليلة قضائية رائدها العدالة الوجدانية او النظام التقليدي ولم يزل نصف الانسان على تلكما الحالتين الى الآن

والنصف الثاني من البشر ارادوا التوسع في المعيشة فسجنوا انفسهم بجدران القري والمدن فتوسعوا ولكن في الشقاء والذل لان اكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى فى سياسة جمعياتهم. وهذا هو سبب تنوع اشكال الحكومات وعدم استقرار أمة على شكل مرضي عام. انما هي تقلبات على سبيل التجريب وبحسب تغلب احزاب الاجتهاد أو احزاب الاستبداد وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر وهو المعترك الاكبر لافكار الباحثين والميدان الذى قل فى البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر أو جمل من الجهل أو فرس من الفراسة أو على حمار من الحمق حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار فقرر قواعد اسياسيه في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الاجتماعيه عند الامم الترقيه على ان هذه الامم لم تزل أيضا منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيئا في وجوه تطبيق اصول تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية. وهذه القواعد وان كانت قد صارت قضايا بديهية في الغرب لم تزل مجهولة أو غريبة أو منفوراً منها في الشرق لأنها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم وعند البعض لم تنل

التفاتهم وتدقيقهم وعند آخرين لم يحترقبوالا لانهم ذو غرض أو مسروقة قلوبهم أو في قلوبهم مرض . واني أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التى تتعلق بها الحياة السياسية . وقبل ذلك اذكرهم بانه قد سبق في تعريف الاستبداد بانه هو الحكومة التي يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومه مصونة بقانون نافذ الحكم. كما استلفت نظرهم الى انهم لاعبرة بيمين من يتولى السلطة ايا كان ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوي والحق والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة وامثال ذلك من القضايا الكليه المبهمة التي تدور على ألسنة كل بر وفاجر . وما هي في الحقيقة الا كلام فارغ . لان المجرم لا يعدم تأويلا ولان من طبيعة القوة الاعتساف ولان القوة لا تقابل الا بالقوة . ثم فالنرجع للمباحث التي اريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي .

(مبحث ما هى الامة اي الشعب) هل هي ركام مخلوقات نامية او جمعية عبيد لمالك متغلب. ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة

٢ (مبحث ماهي الحكومة) هل هي انسان واعوانه يتسلطون على الرقاب والدماء والشرف والمال يفعلون ما يشاؤون ام هي وكالة سياسية تقام من قبل الامة لاجل ادارة شؤونها المشتركة العامة

٣ (مبحث ماهى الحقوق العمومية) هل للحكومة صفة المالكية . ام صفة الامانة والنظارة على الاملاك العمومية مثل الاراضي والمعادن والانهر والسواحل والقلاع والمعابدوالاساطيل والمعدات ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ومثل حقوق اقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقي الاجتماعي وايجاد التضامن الافرادى . الى غير ذلك مما يحق لكل فرد ان يتمتع به وان يطمئن عليه

٤ (مبحث التساوي في الحقوق) هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلا وحرماناً . أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع أو موزعة على القبائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة

٥ (مبحث الحقوق الشخصية) هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . أم أفراد الامة أحرار في الفكر مطلقاً وفي العمل ما لم يخالف القانون الاجتماعي لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية

٦ (مبحث نوعية الحكومة) هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام . أم الملكية المقيدة وما هي القيود . أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو الموقتة . وهل تنال بالوراثة أوالعهد

أو الغلبة وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة وماهي تلك الشرائط وكيف يصير تحقيق وجودها وكيف يراقب استمرارها

٧ (مبحث ماهي وظائف الحكومة) هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد . أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح . واذا اختلفت الحكومة مع الامة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة

٨ (مبحث حقوق الحاكمية) هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ورواتب المال وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الامة وأموالها . أم يكون التصرف في ذلك كله اعطاء وتحديداً ومنعاً منوطاً بالامة

٩ (مبحث طاعة الامة للحكومة) هل للحكومة تكليف الانقياد المطلق . أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والاقناع ولو اجمالا لتتأتى الطاعة باخلاص

١٠ (مبحث توزيع التكليفات) هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومة أم الامة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال وترتب طرائق جبايته وحفظه

١١ (مبحث أعداد المنعة) هل يكون أعداد القوة بالتجنيد

والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالاً أو اقلالاً أو اكثاراً أو استعمالاً على قهر الامة ام يحرص على ان يكون ذلك برأى الامة وتحت أمرها بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لا رغبة الحكومة

١٢ (مبحث المراقبة على الحكومة) هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل . ام يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها فلها ان تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء وتوجيه المسؤولية على أي كان

١٣ (مبحث حفظ الامن العام) هل يكون الشخص مكلفاً بحراسة نفسه ومتعلقاته ام تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيما ومسافراً حتى من بعد طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض

١٤ (مبحث حفظ السلطة في القانون) هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهي على الافراد برأيها أى بدون الوسائط القانونية أم تكون السلطة منحصرة في القانون الا في ظروف مخصوصة ومؤقتة

١٥ (مبحث تأمين العدالة القضائية) هل يكون العدل ما تراه الحكومة . ام يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ومن كل ضغط حتى ضغط الرأى العام

١٦ (مبحث حفظ الدين والآداب) هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمته

١٧ (مبحث تعيين الاعمال بقوانين) هل يكون في الحكومة من الحاكم الاكبر الى البوليس من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته . ام يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة الا في حال الخطر الكبير

١٨ (مبحث كيف توضع القوانين) هل يكون وضعها منوطاً برأى الحاكم الاكبر أو رأى جماعة ينتخبهم لذلك . ام يضع القوانين جمع منتخب من قبل الامة لانهم أدرى بحاجاتهم وما يلائم طبائعهم وصوالحهم ويكون حكمه عاماً او مختلفاً على حسب تخالف الاقوام وتغير الظرف والزمان

١٩ (مبحث ما هو القانون وقوته) هل القانون هو احكام يحتج بها القوى على الضعيف . ام هو احكام تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض والشفاعة والشفقة محترم عند الكافة مضمون الحمايه من قبل كل

أفراد الامة

٢٠ (مبحث توزيع الاعمال والوظائف) هل يكون ذلك مخصوصاً بأقرب الحاكم او عشيرته او مقربيه . ام توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولومناوبة مع ملاحظات الاهمية والعدد بحيث يكون رجال الحكومة اعوزجاً من الامة او هم الامة مصغرة . وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجبارى

٢١ (مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم) هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في واحد . ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ولايجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة

٢٢ (مبحث الترقي فى العلوم والمعارف) هل يترك للحكومة صلاحية الضغط علي القول كي لا يقوى نفوذ الامة عليها . ام تحمل علي توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق اوالاجبار ثم التوسيع منسهلا . وجعل التعليم والتعلم حراً مطلقاً

٢٣ (مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة) هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة.ام تلزم الحكومة بالاجتهادفي تسهيل مضاهات الامم السائرة لاسيما المزاحمة والمجاورة كيلاتهلك الامة

بالحاجة لغيرها اوتضعف بالفقر

٢٤ (مبحث السعي في العمران) هل يترك ذلك الاهمال الحكومه او انهما كما فيه. ام تحمل على اتباع الاعتدال المناسب مع الثروه العمومية بدون التفات للتفاخر بالتزيينات البلدية الغير مفيدة ماديا

٢٥ (مبحث السعي في رفع الاستبداد) هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها.ام نوال الحريه ورفع الاستبدادرفما لا يترك مجالا لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها

هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج الى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الاحوال والمقتضيات الخصوصية. وقدذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوي الالباب وتنشيطا للنجباءعلى الخوض فيهابترتيب اتباعاالحكمةاتيانالبيوتمن ابوابهاوان اقتصرعلى بعض الكلام فيمايتعلق بالمبحث الاخير منهافقط اعني مبحث السعي في رفع الاستبداد فاقول

(١)الامةالتي لا يشعركلهااوا كثرهابآلام الاستبدادلاتستحق الحرية

(٢) الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدريج

(٣) يجب قبل مقاومة الاستبدادتهيئةماذا يستبدل به الاستبداد.

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء وتسر المستبدين لان ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم. ولهذا اذكرهم بما قد انذرهم به (القيارى) المشهور في مثل هذا المقام حيث قال لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير. واني اقول مامن جبار قهار الا ويأخذه الله اخذ عزيز منتقم ثم اقول

مبنى قاعدة كون الامة التي لا يشعر اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية. ان الامة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم او دون البهائم لا تسأل قط عن الحرية وقد تنقم على المستبد ولكن طلبا للانتقام من شخصها لا طلبا للاخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئاً انما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع. وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد اخر فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يداه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد ايضا شيئا انما تستبدل مرضا مزمنا بمرض حد. وربما تنال الحرية عفواً فكذلك لا تستفيد منها شيئا حيث لا تلبث تلك الحرية ان تنقلب الى استبداد مشوف اشد وطأة كالمريض اذا انتكس

ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشده انما يقاوم بالحكمة والتدريج هو ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي

ترقي الامة في الادراك والاحساس وهذا لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس كما ان اقناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه لا يتأتى الا في زمن طويل لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروي المديد وربما كانوا معذورين لانهم الفوا ان لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع

ثم ان الاستبداد محفوف بانواع القوات التي منها قوة الارهاب وقوة الجند لا سيما اذا كان الجند غريب الجنس وقوة المال . وقوة الالفة على القسوة وقوة رجال الدين وقوة أهل الثروات وقوة الانصار من الاجانب فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام . ومن طبع الفكر العام انه اذا فار في سنة يفور في سنة واذا فار في يوم يفور في يوم بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً على ان الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا فاذا كان في الامة عقلاء يتباعدون عنها حتى اذا سكنت ثورتها نوعا قضت وظيفتها في حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة وخير ما تؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة . العوام لا يتهيجون على المستبد غالبا الا عقب أحوال مخصوصة فورية وهي . أولا . عقب مشهد دموي مؤلم

يوقعه المستبد علي مظلوم يريد الانتقام لناموسه . ثانيا. عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوبا ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة بعض القواد. ثالثا. عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام رابعا. عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى اواسط الناس خامسا. في حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد . سادسا. عقب ما يستفز الغضب الفوري كتعرضه لناموس العرض أو حرمة الجنائز في الشرق وناموس القانون أو الشرف الموروث في الغرب سابعا. عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستنصار . ثامنا . عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدواً لشرفها الى غير ذلك من الامور المماثلة لهذا

المستبد مهما كان غبيا لا تخفي عليه هذه المزالق ومهما كان عتيا لا يغفل عن اتقائها. كما ان هذه الامور يعرفها أعوانه ووزراؤه فاذا وجد منهم بعض يريدون له التهلكة يهورونه على الوقوع فى احداها ويلصقونها به بشهادتهم غوضا عن ابعادها عنه بالتموية علي الناس، لهذا يقال ان رئيس وزارة المستبد أو رئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم اقدر الناس على الايقاع به. وهو يداريهم تحذرا واذا أراد اسقاط أحدهم يوقعه بغتة.

ومبني قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل.

به الاستبداد (هو ان معرفة الغاية ولو اجمالا شرط طبيعي للاقدام على كل عمل) لكن معرفة الاجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقا. بل لا بد من تعيين المطلب تعيينا واضحا موافقا لرأى الكل أو لرأى الاكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عدداً أوقوة باس والا فلا يتم الامر حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعا يكون الاقدام ناقصا نوعا واذا كانت مجهولة بالكلية عند كل قسم من الناس أو مخالفة لرايهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط فتكون الغلبة في جانب المستبد مطلقا. ثم اذا كانت الغاية مبهمة في الاول فلا بد ان يقع الخلاف في الآخر فيفسد العمل أيضا وينقلب الى فتن صماء وانقسام مهلك. ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الناس والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند انفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الامام علي ومن وليه من ائمة آل البيت رضي الله عنهم ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة بل عن صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والمطبوعات اذ ذاك

والحاصل ان من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن ان يستبدل بها الاستبداد وليس هذا بالامر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات او فطنة آحاد بل ليس هو باسهل من الفكرة

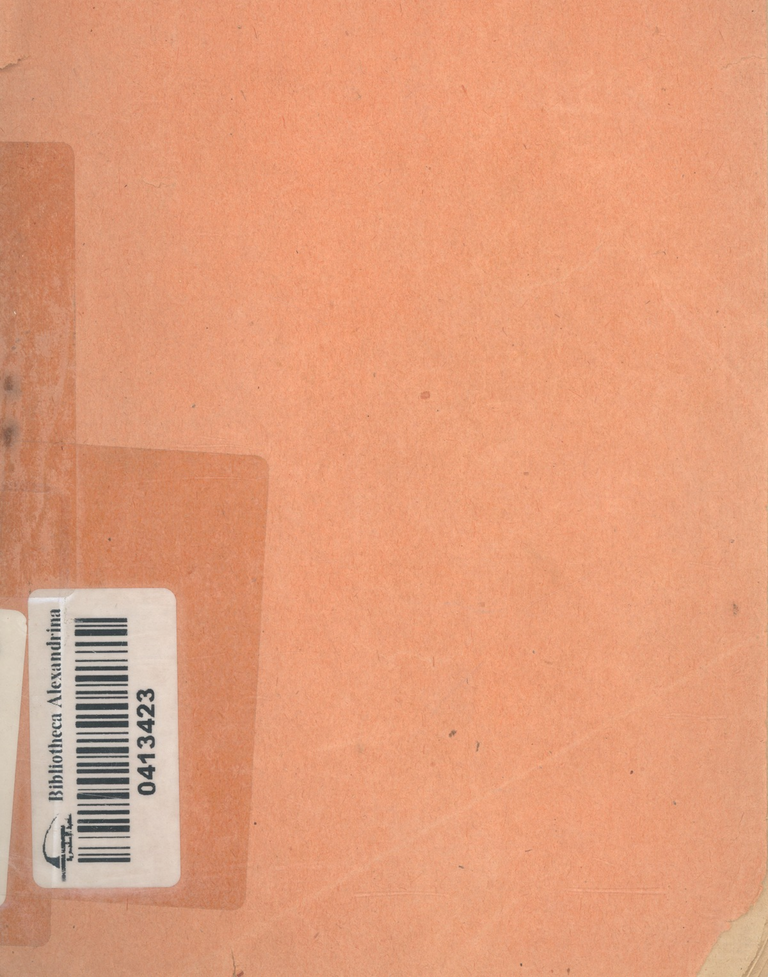
في ترتيب المقاومة وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يكفي ان يكون مقصوراً عن الخواص لا بد من تعميمه ويبتدي ذلك احساس الامة بآلام الاستبداد ولا شك ان الفرد المتحمس في شأن عمومي مثل محاربة الاستبداد يعد المشرات والمئات وربما الالوف على حسب قوة براهينه . ثم لما يستفيض بين الامة البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك افكار كل طبقات الامة ويبقى تحت مخض العقول سنين واعواما حتى ينضج تماما . وحتى يبتدي ظهور التلهف الحقيق على نوال الحرية في الطبقات العلياء والتمني في الطبقات السفلى وحتى يشعر المستبد بالخطر ويأخذ التحذر الشديد والتنكيل وحتى تحصل او تستحصل الفرصة المناسبة . فحينئذ تكون الامة قد استعدت طبيعيا لقبول ان تحكم نفسها بنفسها وحينئذ لها الخيار ان شاءت تستبدل المستبد ذاته لاستبدال اصول الاستبداد بالاصول المقررة المهيئة التي تطلبها وترى نجاحها فيها والمستبد في تلك الحال لا يسعه الا الاجابة طوعاً أو كرها . وهكذا يتم السير الطبيعي ولا مبدل لسننه فليتبصر العقلاء وليتق الله المغرورون ولا ييأس من رحمة الله عاقل غير خامل



واني اختم هذا البحث بان الله جلت حكمته قد جعل الامم مسؤوله عن اعمال من حكمته عليها وهذا احق فاذا لم تحسن امه سياسيه نفسها اذلها الله لامه اخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم علي القاصر او السفيه وهذه حكمة ومتى بلغت امه رشدها استرجعت عزها وهذا عدل وهكذا (لا يظلم الله الناس بل الناس هم انفسهم يظلمون)

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه




Bibliotheca Alexandrina
0413423